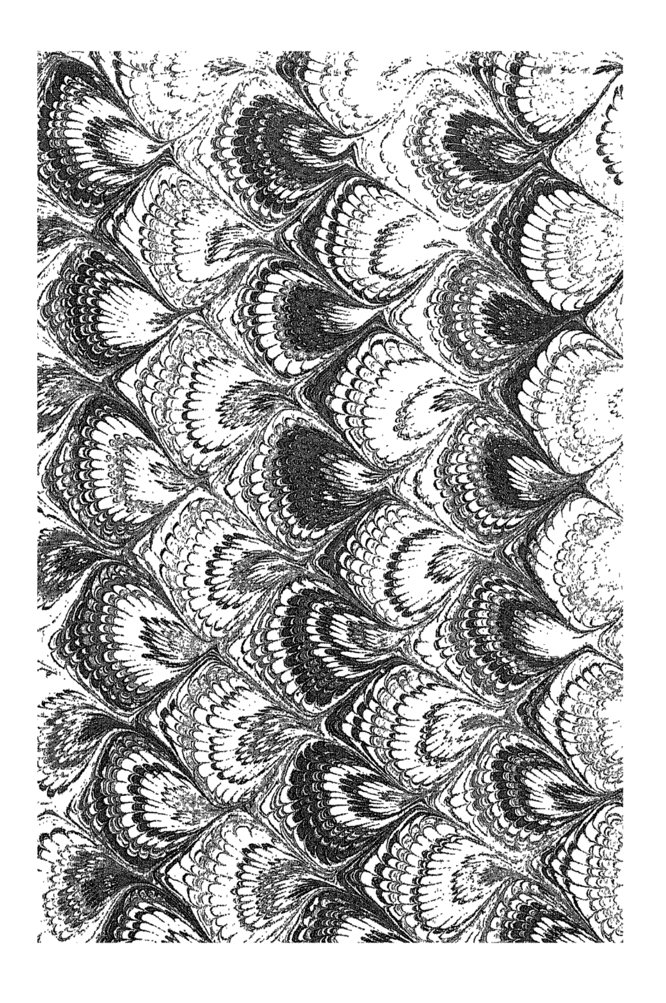






كتاب عصرى

يبحث فى طائفة من الفضائل التي اذا راض المرء نفسه عليها
وأخذ بما احتوته من المبادىء القويمة والارشادات النافعة كفلت له
الفوز فى معترك الحياة

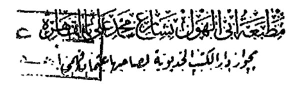
و بلغت به الى السعادة المرموقة من جميع العالمين

بقلم

محمد مسعود



الطبعة الاولى


مطبعة أبى الهول بشارع محمد على بالقاهرة
بجوار دار الكتب الخديوية لصاحبها عثمان فهمى



حامداً ومصلياً

مقدمة

أما بعد فهذا عقد متناسق من فصول باحثة فى جملة من الفضائل اتفق علماء الاخلاق والاجتماع ورجال الاعمال فى هذا العصر على نفعها لمن يتخذها اماما له ودليلا فى طريق الحياة

وهى فى موضوعها ووضعها مستخرجة الدرر من كنوز الادبين الغربى والعربى ومنسوجة على منوال فصول نشرها (ويتسن) الكاتب الامريكى . وما عنيت بأخراجها الا رجاء أن تنظر الشبيبة المصرية الناهضة فيها نظرة تثبت واعتبار تبصرها أمرها وتهديها الى خير مستقبلها وتسدد خطواتها فى تلك الطريق التى تحتف بها المصاعب والعقبات

وانى لارجو أن أكون بهذا العمل قد أديت نحو أبناء وطنى واجبا لا أبغى منهم عليه الا أن يأخذوا بتلك الفضائل ويسترشدوا بما احتوته من العظات فى ظلمات الحياة حتى يبلغوا الى مثل ما بلغ الغربيون اليه بها من السعادة والثروة والجاه

تمهيد

تقول الخاصة فيمن سالمته الايام وابتسم له ثغر السعادة والاقبال فأفلح فى عمله وأثرى بغتة بعد فقر ، انه « سعيد الطالع ، ميمون الطائر ، موفور الحظ » . وللعامة فى هذا المعنى تعابير وأمثال يخطئها العد . وهى كلها تحمل فى ثناياها الحكمة البالغة والرأى السديد . ولا عجب فأن ليمن النقيبة ووفور الحظ دخلا كبيرا فى نجاح المرء فى الحياة واحرازه قصب السبق فى الثروة والجاه . غير أن الطالع أو الحظ كما يكونان للمرء المرقاة التى يتوقل بها الى المعالى ويتسنم ذروة النباهة والمجد ، كثيرا ما يهويان به الى الدرك الاسفل من حضيض الشقاء والخمول ، اذا أخلد الى الدعة والسكون وتراخى فى عمله ونبذ الجد والاجتهاد وراء ظهره اعتمادا على ما أوتيه من سعادة الجد وما أحظاه الزمان به من اصابة مراميه وتحقيق أمانيه . فأن من يركن الى الخمول بعد نباهة والى الدعة والكسل بعد همة ونشاط ، ومن يتخذ من مؤاتاة الزمان له حينا أمنا من بوائقه مدى العمر ، انما مثله كمثل من يبتنى لنفسه صرحا يلوذ به ثم يترك المجال لعوادى الدهر تنال منه نيلا بما أغفل من تعهده بالعناية والترميم ، فلا يلبث أن ينقض . فاذا لم يطمره تحت انقاضه جعله هائما مشردا مسربلا بسربال من الفقر والهوان . ولو لم يكن ضربة لزام أن يجرى الحظ بالمرء فى كل تيار ويزج به فى كل مأزق بل لو لم يكن من طبائعه أن

يهدم اليوم ما شاده أمس الدابر لما أطلق عليه ذلك الاسم الذى ينطوى فيه معنى النصيب الذى يأتى جزافا من الخير واليسر والسعادة

فقمين بالعاقل البعيد مرامى النظر في أطوار الدهر وتقلباته ألا يعتمد أبدا على كونه حظيا ولا على أنه نال ما كان يبتغيه من ثروة وجاه ، بل يجب عليه اذا افتر له ثغر الزمان ان يسجل فى ذاكرته هذه الابتسامة مكتفيا بذلك دون الاطمئنان اليها أو الاعتماد عليها مرجعا فى نفسه أنها ابتسامة قد تعقبها عبوسة وانعطاف قد يتبعه نفور ورخاء قد تتلوه شدة

وخير الذرائع الى المجد والجاه والغنى انما هو أن يتخذ المرء من عزيمته مطية تقرب له البعيد من هذه الغايات السنية والمراتب الشريفة على شريطة التحلى بالفضائل الكفيلة بأمن الطريق . لاننا لسنا الآن فى حيز الزمن الذى كان أهله يصورون الحظ أو الجزاف فى صورة غادة تطرق باب المستغرق فى سبات النوم : بل صرنا الى زمن لا يلوح طيف الحظ فيه الا لمن يقتفى أثره معانيا فى ادراكه من المشاق والاهوال ما يشق المرائر ويقطع نياط القلوب

وانما الناس فرق شتى وحدود متباينة فيما يعتمدون عليه من ذرائع احتياز الثروة والغنى والوصول الى قمم الجاه والمجد واجتذاب الحظ الى حظيرتهم . فمنهم رابط الجأش الذى يخرج للقائه بلا خوف ولا وجل ، ومنهم متحين الفرصة اذا لاحت له من بعيد انجمم تحفزا للوثوب عليها كما تثب الجوارح على فريستها ، ومنهم من اذا رآه شاردا شرود الغزال جد فى أثره وطفق يطارده حتى يدركه ويأخذ بتلابيبه . ولا أحد من هؤلاء الامستنفد فى هذه السبيل جهده التماس الوصول الى الغاية ومعتمد من الفضائل اوالمزايا على ما لو عنى الناس بممارسته والعمل به عن ايمان صادق وجأش رابط وسير حثيث متدارك الى الامام لاصبحوا عدادا من لحظهم الحظ بعين رعايته ومد عليهم رواق حمايته . أما العاطل من حلاها المحروم من مزاياها فما أشبهه بالغلام الغر يكون العصفور فى متناول يده فلا يقتنصه بل يدعه يفلت منها بجهله وسوء تدبيره !

ان الظفر بالنجاح فى الحياة شيء والاحتفاظ بما يستتبعه من عزة جاه ونفوذ كلمة وسعة ثروة شيء آخر . فالذين لم يكابدوا المشاق فى سبيل الفوز بالنجاح هم الذين يجهلون ما يعترض هذه السبيل من العقبات القائمة دونه ولهذا تراهم لا يعنون فى الغالب باتخاذ وسائل الحيطة لصيانة ثماره . وما أشبه أولئك الجاهلين الغافلين بمن يهب من نومه فيرى فى أول ما يراه أن طائرا غريدا نادر المثال قد انساب عليه فى مخدع نومه فلا يكترث به ولا يهم باخذ الآفاق عليه لقنصه وايداعه قفصا مذهبا جميلا فكانت عاقبة غفلته أن عاد العصفور من حيث أتى

والغرض من الفصول الآتية المعقودة للبحث فى وسائل قنص ذلك الطائر الغريد المنقطع النظير المسمى بالنجاح ترويضه على الانس بصاحبه وتعويده التغريد بالالحان المطربة لتدوم به السعادة ويرتفع الشأن فى هذا الوجود

١

الثقة بالمستقبل

أول شروط الفوز فى معترك الحياة ، الثقة بالمستقبل وتيقن الظفر بالمراد فيه . وهي فضيلة إذا أتيحت لصاحب العزيمة ، كانت عوناً له في قهر مايعترضه من المصاعب

فجدير بالطامح إلى إحراز السبق فى هذا المعترك ، أن يأخذ نفسه بالثقة بمستقبله وتحقق مراده فيه . وإلا عاد من جهاده فى الحياة ، بما هو مقدر من الفشل للضعيف خائر العزيمة ، ذلك الذى إذا عبس الزمان فى وجهه وبسر ، داخله الوهم بأنه شقيّ وأن الشقاء ملازمه مادام على قيد الحياة . فأذا تحرك لعمل ما ، وهو فى أسر هذا الوهم الجائر ، آل جهده حتما إلى الفشل والبوار

وخليق به أن يتدبر الحقيقة الآتية :

إن المرء إذا انحرفت أعماله عن الغاية التى يتطلع اليها ، لا يحسن به أن يتهم الحظ والطالع . لأن الناس رجلان ، رجل يقرطس فى الغرض بسهم همته غير هياب ولا وجل ، لمضاء عزمه اطمئنان نفسه وثقته بمستقبله ، وآخر يتردد فيفشل ثم يتهم الحظ

ويجمل به ألاّ يمهد لليأس سبيلا الى نفسه ، إذا جاءت جهوده بما لم يجر فى ظنه من الفشل ، وألاّ يجزع إذا مسته خيبة ، بل يتعزى عنها بالمقابلة بين حاله ومايقع فى الكون من الحوادث والعبر . فيقول مثلا ، إن الرياح لا تهبّ من مهب واحد ، ولا تأتى دواما بما تشتهى السفن . وأن المرء إذا أخطأه التوفيق مرة كثيراً ما يصيبه ، إذا استأنف العمل عينه غير يائس ، واقتدى بالرُبان اليقظ فى السلوك بسفينته إلى المرسى الأمين ، بين الرياح المختلفة . الى غير هذا من التعزى المنشط للهمة المثبت للايمان

أما ما يتبجح به المغرور من أن الحظ له مؤات ، والدهر لم يلقه قط بوجهه المكفهر الكالح ، فليس فى طاقة مخلوق الثبات على زعم أنه الملحوظ وحده بعين العناية والتوفيق ، ولا المطروق دون غيره بخطوب الزمن وشدائده

الحياة سلسلة مؤلفة من حلقات بيضاء وسوداء ، متدخل بعضها فى بعض ومتماسك به . فحريّ بطالب السبق فى ميدان الحياة ، إذا أرهقته المتاعب وأحرجته المآزق ، أن يوطن نفسه على الاعتقاد بأن الحرج يعقبه الفرج ، كما تعقب الحلقة البيضاء الحلقة السوداء في نسق السلسلة ، وأنه إذا اتقى أسباب التخبط فى سيره ، خرج من مأزق الشدة والحرج إلى باحة الرخاء والفرج

ومن الناس من يذهب ضيق الادراك وقصر النظر بهم، إلى اعتبار الثقة بالمستقبل ضرباً من الخيلاء، والاعتداد بالنفس. وليس في مذهبهم ما يستدعي العجب، فأن الثقة بالفوز، والحياة تحفّ بها المصاعب والعقبات، فضيلة اختص بها أصحاب العزيمة والبأس. وإذا هم وصلوا اليها من طريق الاعتداد بالنفس، فحبذا السعي سعيهم. لأنهم عرفوا كيف يتحينون الفرص لاجتناب المزالق التي يندفع اليها المغرورون، فتزلّ عنها أقدامهم في غالب الأحيان

وتذهب طائفة الى تحبيذ الاعتداد بالنفس، من حيث إنه يستنفر صاحبه الى الثقة بأهليته، والاعتماد على قوته. فقد قال (إيليك مورن) في كتابه المعنون (ألا فانتبه وزاحم) ما يأتي: «من الخطأ إخماد جذوة الاعتداد بالنفس في أفئدة الشبيبة. لأنه من أقوم الشيم في المرء، إذا طهر من لوث النزق الدافع بالشبان الى المفاخرة بما لا يتفق من السجايا مع مراكزهم. وإذا كانت كلمة الاعتداد بالنفس لا تروق للسامع أحياناً، فما هو إلا لما مسّ معناها من التحريف، وطرقه من التبديل اللذين تفضي اليهما غالباً صعوبات الحياة ومعضلاتها، في عصرنا الجديد. وإلا فأن الاعتداد بالنفس خير مظهر لثقة المرء بأهليته، الثقة التي يترتب عليها النجاح في الحياة، والظفر بمطالبها العديدة.

حقاً ، إن اعتقاد المرء النجاح في عمله ضرب من الخيلاء . ولكن ما ضائره منه إذا كان هو الذى يستفزه إلى الوثبة الأولى التى إذا جاءت بشىء من النجاح ، حملته على الأخذ بالوثيقة فى أمره ، والاعتماد على مواهبه الذاتية ؟ يؤخذ من هذا ، أن بثّ روح الهمة لا يكون إلا بأنماء الثقة والاعتماد على القوى النفسية والمواهب الذاتية

ومن أوجب الفروض عليك ، أن تبدد الشكوك من حولك فيما أنت مقبل عليه من العمل . فأذا عادت الى مساورتك ،فاحمل عليها من فورك ، لتمزيق شملها . وحذار أن تفوه بلفظ الشك ؛ لأنه إذا انطلق به لسانك مرة ، انغرست جذوره فى قلبك . ولا تكن من المترددين ، إلا إذا كان المشروع الذى هممت به فجاً لم تبد عليه أمارات النضج ، أو غامضاً يحتاج استجلاء الصواب فيه الى مراجعة العقلاء والمجربين ، استمداداً بآرائهم. وحقيق بك ، بعد أن تزنه بميزان الروية والتدبر ، وتقلبه على وجوهه المختلفة ، وتعتمد على أصوب الآراء فيه ، أن تثبت يقينك فى النجاح وتقصد الى غرضك لا تلوى على شىء

وإذا تعاجمت فى أمر ، فتسرب الشك إلى نفسك ولعب التردد بضميرك ، فلا تجهر بما اعترضك من ذلك على مسمع ممن ترجو منهم الأزر والعون . واعلم أن سواد الناس فى المجتمع الانسانى

لا يؤدون إلا ما يسند اليهم من الأعمال، ولا يسيرون فيها إلا على ما يرسم لهم من الخطط . فأذا شئت أن تكون فى عدادهم، فدبر أمرك على وجه يكفل لك السيادة عليهم والاستئثار بزمام الرأى والمشورة بينهم، حتى تظل ساحراً ألبابهم بما رزقت من المواهب . لانك لن تستطيع استهواء الافئـدة اليك، إلا إذا كنت أول مقتنع بسـداد أمرك، وواثق بصحة مذهبك، ومعتقد بفائدة مشاريعك . وحسب المرء أن يكون على جلية من رأيه، ليقنع الغير بصوابه فيما هو منصرف اليه من المقاصد الطيبة والاغراض النافعة

ومن الواجب عليك أن تبثّ تلك العقيدة فيمن حولك، جمعاً لمتفرق عزيمتهم، وتبديداً لمـا يحيط بهم من الشـكوك المثبطة لهمتهم . وحسبك أن تكون واثقـاً بحسن مستقبلك وسعادة جدك، لتبدو على أقوالك مسحة الرأى القاطع والحـكم الجازم . فقد ذهب كارنيجي صاحب الربوات [1] الكثيرة من الأصفر الرنان، إلى اعتبار الثقة بالمستقبل والاعتماد على حسن الطالع، من أهم عناصر النجاح فى هذه الحياة

قال : « لايعدل مستخدم بيت التجارة أو الصناعة خردلة،

---

(١) الربوة عند الحساب عشر كرات والكرة مائة الف فالربوة هى المليون فى الاصطلاح الحسابى الحديث

إذا لم يعبأ بنفسه أو لم يرها أهلا لمشاركة صاحب ذلك البيت فى إدارة أعماله » . وقال : « من شروط النجاح ، التخلص من قيود الوظائف الضئيلة الأجر والمراكز التى ، إن علمت أربابها كيف يتقون أخطار المجازفة والاقتحام ، تسد في وجوههم إلى الأبد أبواب المستقبل ، وتحملهم على الانكماش والانزواء تنصلا من أخطار المسئولية ، وفراراً من عبئها الثقيل »

ومن الأمثلة على مزايا الثقة بالمستقبل والاعتداد بالنفس ، ما يستخلصه القارىء من قصة رجل كان لا يزال لاسمه شان خطير وشهرة ذائعة فى الملأ ، منذ سنوات قليلة . نريد به المستر (ما كاي) الذى استهواه بريق الذهب في معادن كاليفورنيا ، فشد الرحال اليها سنة ١٨٤٨ إذ سمع الناس يقولون : « إن من يرد تحصيل الثروة منها يكفه ، متى وصل اليها ، أن يمد يده الى أرضها ليقبض من ترابها على الذهب الابريز »

نعم ، إن هذا السراب الذى حسبه ظمأى المال ماء خالصاً من الكدورة ، قد أخنى على الكثيرين منهم ، وأوردهم موارد التلف . إذ باعوا فى سبيله ما ملكت أيمانهم من متاع وعقار ، وشدوا الرحال الى تلك الأقطار ، رجاء أن يعودوا منها بخالص الذهب والنضار . ولكن الفريق الأكبر من أولئك المهاجرين كانوا ، حينما عقدوا النية على تلك الرحلة الطويلة ، عطلا من

الفضائل والخصال اللازمة لتذليل ما لم يحسبوا حساباً له من عقبات الطريق ، لقصر نظرهم وضيق عقولهم ، فكان جزاؤهم أن هلكوا جميعاً ، قبل أن يبصروا الذهب الذى نشدوا ضالته ، وجعلوه المقصد الأسني من رحلاتهم المحفوفة بالأخطار والمشاق

وشتان بين ذلك الفريق القصير مرامى النظر ، وبين من يجمع الى فضيلتي الثبات والمثابرة ، ديدن الاستعداد والتأهب لاصابة الغرض المطلوب . فأنه لن يخطر أبداً للفريق الأخير أن يزايل ميدان الكفاح ، قبل أن تلوح له بشائر الفلاح والنجاح . بل لن يفكر إلا فى ترصد الفرصة للوثوب عليها ، مع اهتمامه بتوفير أسباب المعيشة لنفسه ، وتريثه ليوم يظفر فيه بالثروة التى من أجلها تجشم أهوال السفر ، وعانى متاعب الاغتراب والبعد عن الأهل والأخوان .

ولقد كان المستر (ماكاي) من أفراد هذا الفريق . فأنه ، في إبان أمره ، كان يتعاطى تجارة الخيل بأيقوسة . ثم احترف ركوب الأصائل منها فى حلبات الرهان ، لحساب المتراهنين ، فصار من الفناجرة . وظل بعد ذلك يتنقل من حرفة الحوذىّ فى مركبات النقل ، إلى مهنة الوسيط فى تجارة الخيل . وكان فى وسعه أن يقيم بأحدى المدائن المعروفة بالعمران والرواج وازدهار الحضارة ، ليزاول فيها تلك الحرف كلها أو بعضها ، ويعيش في خفض وهناء

من ربحه الوفير منها . ولكنه كان موقنا بأنه سيطرق باب حياة جديدة يخرج من ميدانها ظافراً بالمراد ، فلم يغفل شيئاً من ذلك . وكان لا يعدل اغتباطه بنفسه واطمئنانه اليها ، سوى الغرض السامي الذى يطمح اليه ، ألا وهو القبض على صولجان السعادة باحتياز الثروة الواسعة ، فوطن نفسه على نيل هذا الوطر بمعالجة المشاق والشدائد ، ومواصلة العمل لقهر الصعوبات وتذليل العقبات

ومما اتفق له يوما ، أنه كان يسوق مركبة ثقيلة فانقطع السير الذى تشدّ به . فعالج إصلاحه ولم يفلح ، فعوّل على الاستفهام من أول قادم عليه عن عامل يستطيع اصلاحه . وكانت مسالك كاليفورنيا لذلك العهد غير مطروقة كثيراً ، فالتقي مصادفة بفارس برز له من غابة كثيفة الأشجار . فسأله عن حاجته ، فعرض الفارس عليه أن يدله على عامل فقبل . وبينما هما فى الطريق أخبره الفارس بأنه يعيش فى رخاء ، من أرض صغيرة بها أثر لعروق معدن فضي

وما برح (ماكاى) يفكر فى الغرض الذى جاء به إلى هذه البلاد . فما رنّ فى أذنه كلام رفيقه ، حتي سأله أن يطلعه على تلك الأرض ، فرضى . فأخذ الاثنان سمتهما اليها . وهناك تفرغ للبحث فى تربتها . فظهر له أن العروق الفضية المتشعبة فيها

أطراف معدن ممتد فى باطنها ، فعقد النية من فوره على اشترائها. فكان أول ما تذرع به من الوسائل لتحقيق هذه الأمنية ، أن حرّم على نفسه نعيم المطعم والمشرب والملبس ، وفرض لها من العمل اليومي فوق ما اعتادت القيام به . وجدّ فى الوفر والادخار ، وكدّ وكدح فى العمل . حتى تكوّن عنده رأس مال ابتاع به تلك الأرض التى دأب على العمل لاحتيازها ، وثاقاً بحسن مستقبله فيها

تلك الأرض هي التى عرفت بعد ، مع ما أضيف اليها من الأراضى المجاورة لها ، باسم (معادن كومستك) ، وقدرت قيمتها بثمانى ربوات من الجنيهات

يستفاد بالأجمال مما تقدم ، أن ثقة المستر (ماكاي) بمستقبله هى التى اكسبته تلك الثروة الواسعة ، والجاه الطويل العريض

وفى الأحاديث النبوية الشريفة ، ما يستشف منه الحض على الوثوق بالمستقبل ، والنجاح فيه بالسعي والدأب على العمل . فقد جاء فى حديث منها ، أنه لا ينبغي للمرء إذا أحب الوصول إلى قمة الجبل ، أن يقول له ادن منى ، وإنما ينبغى أن يذهب هو اليه ويصعد فيه حتى يبلغ إلى ذروته ، وأن يتخذ من صدق إيمانه بالنجاح نوراً يهتدى به فى سبيله . تلك هى خلاصة الحديث الشريف ، وفى معناه قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إن

أحدكم إذا طلب الرزق عليه أن يجد ولا يقول الله يرزقنى » الخ

وبدهيّ أن الوصول الى قمة الثروة ، والحصول على الرزق لا يكونان إلا إذا توافرت فى المرء الثقة بمستقبله ، واهتدى إلى ذلك بالايمان والعمل اللذين وردت الاشارة اليهما فى الحديث الشريف والحكمة العمرية

ويا خيبة من إذا احتجبت عنه أشعة ذلك النور بسحابة من سحب الحوادث ، فظن أنه انطفأ فانقلب عائداً من منتصف الطريق يتخبط في ظلماته ، وأبى أن يصبر حتى تنقشع تلك السحابة ، وينبثق النور ثانياً من خلالها أسطع وأنصع مما كان

الصابرون هم الموعودون بالوصول إلى القمة، أعنى إلى أسمى درجات السعادة والجاه . لأنهم لصدق إيمانهم وحسن يقينهم وشدة وثوقهم بمستقبلهم ، لم يحولوا أنظارهم عن الجهة التى احتجبت وراءها شمس الثروة . بل انتظروا ريثما تتبدد السحب من دونها فتتجلى ثانياً ببهائها الساطع ، ولم يجعلوا للشك منفذاً إلى أفئدتهم

فالثقة بالمستقبل هي كما رأيت أول شرط من شروط الفلاح والنجاح ، وعليها يتوقف الفوز فى معترك الحياة

٢

الطمع والطموح الى المعالى

الطمع خلة تدفع بصاحبها إلى التماس الدرجات الرفيعة، والسمو على الأنداد والنظراء، وطموح إلى تحصيل الثروة وتجرّى المزايا الكفيلة له بالسبق في مطالب الحياة

ولم يكن الطموح فى زمن ما، ألزم للمرء منه فى وقتنا هذا. لأن تعدد مطالب الحياة العصرية وتنوع حاجاتها وبذل الجهود الضرورية في سبيلها، للوقوف فى الموقف الملائم بين الجموع المتحفزة للوثبة على الثروة، لما يحكم عقدة الطمع فى نفس الطامح إلى إحراز المعالى، والراغب فى اقتناص طريدة الثروة

قال داجن: « الحياة سلم صعب المرتقى، فأذا لم يصل الصاعد فيه إلى درجته العليا قبل المزاحمين له، تعرض لخطر السقوط، وقضى على نفسه بالهلاك. لأن وقوفه وسط الطريق يجعل بقاءه فى موقفه متعذراً، لكثرة المتزاحمين وتدافعهم بالمناكب التماس الوصول إلى تلك الدرجة المرموقة منهم بالأبصار والبصائر. نعم إنه لا مفرّ لبعض المتزاحمين من التخلف والانزواء، خيفة أن يصيبهم

أذى التزاحم والتدافع . وهم الذين أسندت اليهم خطأ فضيلة ، الروية والتؤدة وحب التريث وغيرها من الفضائل النافعة . ولكن لا يعزب عن الخاطر ، أننا الآن فى زمن غير الذى كان يحسن بالمرء فيه أن يتحلى بها ، لمجرد الرغبة فى أن يعدّ في زمرة الفضلاء . لأن الفضيلة إذا لم تفسح فى صدر صاحبها مكاناً لاستقبال ما يقع من الحوادث بالتسامح والاحتمال ، لا تعدّ من الذرائع لكسب الفخار والمجد

الطمع نزاع نفسي ، إذا نقى من شوائب الخسة ، كان خير ميزان لتقدير الجدارة والاستحقاق ، وخير وقاية من مغبة القناعة التى ما ارتطمت بها سفينة الأمل فى المستقبل ، إلا وتحطمت وذهبت في كل ناحية بدداً . فالطمع إذاً هو عكس القناعة من حيث إنها الرضى دون الكفاية ، وأنها تفضي دائماً إلى الحياء الطامس لكل أثر نافع للمزايا والفضائل النفسية الموهوبة والمكسوبة . قال (كورسى) : « كن طموعاً ولا تقف من الطمع عند حد . لأنك إذا انفسحت أمامك آفاق المطامع ، كنت أقرب الى التوفيق لنيل مبتغاك وقضاء مآربك وسد مفاقرك » . وقال بعضهم : « كان كل جندى فى جيش نابليون يحمل فى جعبته عصا المرشالية » . أى أن كل جندى فى هذا الجيش كان على صغر شأنه وانحطاط مرتبته فى الجندية ، يحمل

بين جنبيه نفساً كبيرة ، تسمو به إلى المعالى الخطيرة والاقدار الشريفة ، وأن الخليق بذى الهمة الكبيرة البعيد عن التفنج ، أن يقتدى به فى الطموح إلى تلك الغايات المجيدة

ولو نظرت إلى الغلام الفقير الذى يدخل أحد المصانع الكبيرة بأطماره البالية للتمرن ، فتطرق أذنه وهو يباشر عمله كلمات لا يفقه لها معني ، لجلبة العمال وضجيجهم وقرقعة احتكاك الآلات وتفاعل أجزائها فى ذلك المصنع العظيم ، أو الى الكاتب الحاسب وما يدوّنه من الأرقام في الدفاتر الضخمة ، بدون أن يدرك لها علة ، أو إلى العمال المسخرين فى الأعمال المختلفة كالآلات الصماء ، فأنه لا تلبث أن يتجلي لك أنه لولا الطمع فى شرف القدر ونباهة الذكر ، لما صعدوا الى فروعها من تلك المنازل الخفية ، ولما قصدوا بالآمال وشدّت اليهم الرحال

واعتبر بذلك الرجل العظيم (برنادوت) ، رأس الأسرة الحاكمة الآن على بلاد السويد . فأنه لم يكن فى إبان أمره إلا عاملا صغيراً في مصنع ، وكان يخيل له أثناء العمل أن هاتفاً يساره فى أذنه بكلمتي « ستصير ملكا » . فطفق من حينه يعمل لتحقيق هذه النبوءة ، حتى صار ملكا تتعاقب سلالته على الحكم الى الآن ، كابراً عن كابر

ثم أمعن النظر في المأثور عن معاوية رضي الله عنه ، وتأمل

حكمته الثمينة في قوله : « هموا بمعالى الأمور لتنالوها ، فأنى لم أكن للخلافة أهلا فهممت بها فنلتها » ، يتبين لك أن الهمة هنا ماهى إلا الطمع مكسواً بكساء لطيف يذهب ببعض خشونته اللفظية

إن الهمة والنشاط فى العمل ، مضافين الى الترتيب والقصد وغيرهما من الفضائل التى سيرد بيانها بعد ، تنزلان من الثروة بمنزلة الدعامة من البناء . غير أنهما إذا لم يقترنا بالطمع كانا أشبه بالبذر الصالح يدفن في الأرض ، فأما لا تفى الحرارة باظهار نبته ، وإما أنها تنبته ولكن لا يلبث أن يعتريه الذبول ، أو يقف من النمو عندحد لا يتعداه ، فلا يأتى بالمنتظر من القطوف الدانية والثمار الشهية

نزوع النفس الى الطمع فضيلة لامندوحة عنها لمن يتحفز للوثبة على الفرص السانحة — وما أكثر ما تتوقف حياة المرء من مبتدئها الى مختتمها ، على واحدة من هذه الفرص — فهو بين أن يغتنمها فيسعد ، أو يدعها تفلت من يده فيشقى ، ويقعد ملوماً محسورا

ليس الطمع المحمود من صفات المجبولين على الشر ، لأن غراسه لا ينمو فى غير النفوس المطبوعة على الخير والعمل الصالح . ومن أخص مزاياه استلال الحسد من النفس ، فأن الطامع

لا يرى بطمعه إلا الى التفوّق على أهل أفقه أو لفيف أقرانه أو فريق المزاحمين له . دع أن فوزه بطمعه يحمله على التسامح والتساهل مع غيره ، فيكون شأنه مع من حرموا ثمرة ذلك الفوز شأن المشفق المتمني أن يصيبوا من جهودهم ، ما أصاب هو من جهوده ثروة وجاهاً ومجداً

وكثيراً مايتفق للطامع أن يتخلى العقبات التي تعترض في سبيله ، بعد أن حالت طويلا بينه وبين غايته ، فيستهين بها ولا يعطيها حقها من عنايته وهمته . وإذا لم يكن للطمع من الفوائد إلا معاونته المرء على اجتياز العقبات وتذليل الصعوبات ، لكفي

وما دامت الغاية من الطمع طلب السعادة وتوفير أسباب الهناء ، فما يضيرنا أن يكون فيما نتذرع به من الخلال ، للفوز في معترك الحياة والظفر بما نطمح اليه من السبق في ميدانها ؟

ومن النـاس من تميل به العواطف إلى تضحية مصلحته لصون مصلحة غيره . فأذا هو قد حسب هذا الفعل ضرباً من المروءة ، فلا يحسبن نفسه من الجديرين بالاندراج يوما ما ، في اسلك أصحاب الهمم العالية أو الموفقين للنجاح والظفر في ميدان ألحياة . نعم ، قد يتاح لمثل هذا المحسن الكريم أن ينجح ، إذا لقى بنفسه في المعمعة . أووقف حفافيّ الميدان لمشاهدة المتبارين فيه . ولكنه لا يفوز بذلك النصيب الضئيل ، إلا اتفاقاً أو كما

يلتقط المتسول عفواً، ما يجده من لفاظات الموائد في الطريق

ويحدث إذا وقف على فوائد الطمع وقدر مزاياه فأخذ به، أن تتقلب حاله في أطوار التحسن. فأنه ما سمع عن أحد أنه قبض على الثروة من ناصيتها، دون أن يجعل الطمع رائده اليها ويعرف أن الطمع المعزز بالنشاط والهمة، يرشد الى وكنات الثروة. كما أرشد ذلك البائع الصغير الذى أورد (كوفنيان) قصته فيما يلي:

« فى سنة ١٨٦٥ كان أحد رجال شرطة باريس مارا بالقرب من براح فى ملتقي شارعي (تاران) و(سان بيير)، حيث يمتد الآن شارع (سان جرمان). فأبصر بائعاً جوالا يبيع للمارة أصناف البضائع الصغيرة، فسأله التصريح الذي يبيح له التجوال في الطريق. ولم يكن التصريح معه فلم يبرزه، فساقه الى دار الشرطة حيث عرف الضابط من لهجته أنه من أبناء بلده فتنقل به فورا من الاستجواب الرسمي، الى أحاديث الوداد التي اختتمت بأطلاق سراحه، موعوداً بعدم تعرض رجال الشرطة له

والذى يخيل للقارىء أول وهلة، أن هذا الحادث لا يترك أثراً فى مصير صاحبه، لما يتفق من وقوع أمثاله، ولاشتغال المفوض اليهم حفظ الأمن بها صباح مساء. ولكن القبض على ذلك البائع الجوال الحقير، وسوقه إلى دار الضبط لمعاقبته علي تقصيره، كانا أساس الثروة الواسعة التي اشتهر بها،

قضى الرجل زمناً يبيع بضاعتـه على السابلة فى الشوارع الباريسية ، تكلأه عين عناية الضابط . ثم تخصص لبيع البضائع المتبقية فى بيوت التجارة ، بعد انقضاء الفصل الموافق لها ، وهو المبتكر لفكرة عرضها فى مخزن قائم بذاته ، فراجت أعماله أيما رواج ، وبلغت من النمو والاتساع مبلغاً دعاه الى إنشاء السوق المعروفة تجاه محطة (سان لازار) ، ثم السوق المعروفة في شارع (ريفولى) ، باسم « بازار ريفولى » . وهي التي بلغت من السعة مبلغاً استوجب الدهشة والاستغراب

تتجلى للقارىء من هذه القصة صفتان كانتا دعامتي نجاح الرجل وفوزه فى معترك الحياة التجارية : أولاهما الطمع والثانية الحذق في اغتنام الفرصة

فبالطمع طمح الى الاتجار بالبضائع المتبقية فى بيوت التجارة . بعد انقضاء الفصل . وهذا النوع من الاتجار يقتضى من الخبرة والدراية أكثر مما يتطلبه الاتجار بالبضائع الصغيرة ، فى الطرقات العامة . ويستلزم ما لا يستلزمه هذا من الأقدام على المجازفة بالاموال ، والتعرض لأخطار الخسارة . والأمل الكبير فى الربح ، إلى غير هذا من الصفات التي يحتاج التاجر اليها . وهي ضربة لازب له في النوع الثانى من الاتجار دونها فى النوع الأول

وطمع الرجل فى توسيعه نطاق تجارته ، هو الذى حمله على

استئجار حانوت لعرض بضاعته فيه. ثم على إنشاء السوق الأولى فالسوق الثانية. وطبيعي أن شوقه الى احتياز الثروة كان شديداً، وأن درايته بأساليب الترصد لاقتناص الفرص السانحة كانت واسعة. ولولاهما لما صبر على مضض الانتظار، ووقف لها بالمرصاد الى أن أوقعها في شباكه الممدودة

عرف الرجل بحذقه ولباقته، كيف يستفيد من انتمائه الى البلد الذى ينتسب اليه صاحب الشرطة، وعرف كيف يتلطف معه ليحمله على مساعدته والعطف عليه ويسترق منه الوعد بعدم تعرض رجاله له، فى تجواله ببضاعته. فكان هذا الحادث على بساطته، من أهم بواعث نجاحه فى تجارته، ووصوله الى الدرجات العليا من سلم الثروة والجاه، لاسيما وأن التجار أمثاله ينوون رواج أعمالهم وتوطيد ثقة العامة بهم، على ما يوهمونها به من الانتماء الى ذى جاه أو سلطة كذلك الضابط. وكثيرا ما يتذرعون بهذه الواسطة الى استمالة المشترى اليهم

ولو أن بائعاً غيره اعتمد زوراً على ذلك الانتماء لترويج بضاعته، لأفضت الحال به الى عكس ما أفضت اليه مع صاحبنا. إذ كان يساق حينئذ إلى موقف التهمة بأنه أدلى الى القابضين على زمام السلطة العامة بالبرطيل

مما سلف يؤخذ أن حصول بائعنا من أحد رجال السلطة

على الوعد بعدم تعرض أعوانه له فى تنقله لترويج بضاعته ، كان الأساس المتين الذى شاد عليه صرح نجاحه . ومن الأدلة الناهضة على حذقه وكياسته في ذلك ، اختياره أوفق الأوقات لاغتنام الفرصة التي وسع فيها نطاق تجارته ، باستئجاره حانوتاً لعرض بضائعه فيه

وقد لا يرى القارىء فى الأمر ما يستدعي حذقاً من الرجل. ولكن المتأمل المنصف لا يسعه إلا التسليم بما كان لحذقه من الأثر الجليل فى تشييد ثروته . فأن استئجاره الحانوت كان قد ألقى في روع عارفيه ، أنه تمكن بفضل همته ومضاء عزيمته وحسن تدبيره ، من الاستقرار فى مكان ثابت ومركز معلوم ، فتضاعفت ثقتهم به . ولو أنه عدم التوفيق للنجاح وتكبد الخسائر الفادحة على أثر انتقاله إلى المحل الثانى لتوسيع نطاق تجارته ، لما رضى عملاؤه باسترداد ثقتهم به، بل لتعاونوا جميعاً على تأييده ، لعلمهم بأن الرجل الذى يأتى بآيات الفطنة والحذق، والتبصر فى الاعمال كالجواد الكريم سرعان ماينهض من كبوته إذا كبا ، ويقطع شوطه البعيد المدى

ولا حاجة بنا الى الكلام على الهمة والنشاط ، اللذين لا غنى عنهما فى تحقيق آمال العاملين وتسديد خطواتهم، نحو السعادة والثروة . وإنما لا يسعنا إلا أن نعجب بكل امرىء يقتدي بذلك

الرجل فيما أظهره من الثقة بنفسه . والهمـة فى عمله لأيجاد مركز خطير له فى عالم التجارة . ولو أنه كان ممن يفتخرون بالقناعة ويعتبرونها من الخصال الفاضلة فى طلب المعالى . ثم قعدت به همته عن الاعتداد بنفسه ، لقضى طول حيـاته متقلباً فى المهن الحقيرة التى لاتغنى ولا تشبع من جوع

قال (إيليك مورن) فى هـذا الموضوع وأجاد : « من الأمانى التى نعلل النفس بتحقيقها يوما ما ، أن يعرف الغلام ، متى بلغ الحلم ، قدر نفسه والاعتماد على قوته وعزيمته . ولكن هيهات أن تحقق هـذه الأمانى إلا بتحوير النظام المرسوم الآن لتعليم الاطفال وتربيتهم ، وحذفت من لوائح التعليم القواعد القاضية بأيثار التلميذ القنوع وتمييزه على أقرانه ، باعتبار أنه تحرى الفضيلة فقبض علي ناصيتهـا . والحال أن القناعة مظهر جليّ من مظاهر ارتياب المرء فى قدرته على عظائم الأمور ، ودليل على عدم ثقته بمستقبله

« وإنما الواجب فى تربية النشء ، تلقينهم الاعتماد على قوتهم النفسية وكفاءتهم الذاتيـة ، وتعويدهم حب التنافس والتفوق بلا خوف من أن يتحول هـذا الخلق فيهم ، إلى رذيلة الزهو والخيلاء والادعاء الباطل »

ويسوءنا جدّ الأساءة أننا لانزال نسـمع الأصـوات

مرتفعة بتحبيذ القناعة وإطرائها، على وجه يفضى إلى إخماد جذوة الطمع والطموح فى النفس . ولسنا نعلم حتى متى يدعو المنافقون والمداجون الى تحبيذ تلك الخلة، ويطلقون عليها وصف الفضيلة، وما هى فى الحقيقة إلا ضربا من الخيلاء المغشاة بغشاء مموه من التصنع والرياء .

وخليق بالعقلاء أن يعملوا لاسقاط تلك الفضيلة الكاذبة الدالة على ضعف النفس وخور العزيمة وفتور الهمة من علوتها . وإحلال الطمع محلها . فأن الطمع عماد المشاريع الجليلة وأس النجاح في كل أمر خطير .

الترتيب والقصد

لاقوام للنجاح إلا بخصلتين كلتاهما توأمة الأخرى ، وهما الترتيب والقصد

والترتيب يسبق القصد ويتممه ، لأن القصد لايجيء إلا من طريق الترتيب حتما . مثاله : إذا لم يحتفظ المرء بأول مال ربحه احتفاظاً يقصد به الى تنميته ، فقد وقف عند الحد الذى وصل اليه ، لن يتخطاه ذاهباً إلى الأمام . وما الاحتفاظ بالمال إلا ثمرة الترتيب الذى لا قصد بدونه

وقلما يتفق للمبتدىء فى عمل ، أن يربح منه أول وهلة . فأذا ربح وأنفق هذا الربح فى غير مايدعو الى توسيع نطاق عمله ، فقد قضى على نفسه بالانتظار ريثما يستفيد ربحا غيره . وهو مالم يأخذ عهداً على الدهر به . فتكون نتيجة جهاده الطويل ، أن تنقضى الأشهر والأعوام ، بدون أن تحقق متمناه ، وأن يطمس الفشل مابقي فى نفسه من أثر القوة التى كانت تدفعه الى الأمام . فيكون من أمره عندئذ ، التنكس فى حضيض الكسل والخمول

قال تاجر يعظ ابنه : « بالدود الحقير يصاد السمك الصغير، وبالسمك الصغير يصاد الحوت الكبير الذى يوضع على الموائد طعاماً مريئاً للآكلين . فأذا لم تحتفظ بالدود الصغير أو لم تدخره لوقت الحاجة اليه ، فبعيد عن مظنة الاحتمال اصطيادك السمك الصغير ، تتوسل به الى صيد الحوت الكبير »

ومن الناس من يحتقر الدودة الدنيئة ، إذا وقعت اليه فى صورة درهم نقد . وهو خطأ ، وإن بدا طفيفاً ، يترتب عليه فى المستقبل ضرر عظيم

نعم ، إن الدرهم حقير الشأن فى ذاته ، إلا أن الاحتفاظ به مع استدامة العناية بأضافة أمثاله اليه ، كلما مكنت الفرصة من ذلك ، تفضى الى تكوين رأس مال وفير

قال لافون : « ما المرجان إلا ذرات غير محسوس بها فى قيعان البحار ، ولكنها بتضامها بعضها الى بعض، جعلت قاع المحيط الهادىء أشبه بالجبال الرواسى من المرجان ، تشعبا وارتفاعا »

وثمة أحوال تحتم بترتيب النفقة على وجه يتم به الوفر والقصد ، ويكون الانفاق معه خاضعاً لعاملين : عامل التروى والتثبت ، وعامل الترتيب والتنسيق

منها : أن البيت المرتب على النسق الجميل يدعو صاحبه الى ملازمته ، ويقيه شرور طلب الراحة والهناء فى الملاهى ، والبيت

العاطل من هذه الحلية يزجّ بصاحبه اليها فيضيع وقته ، وينفق ماله فيما عاقبته الأضرار ببدنه وعقله

فلو عنى الناس بتخصيص بعض مكاسبهم لتأثيث مساكنهم وتنسيقها بالمتاع الجميل المتين ، لصح أن يوصفوا بالمقتصدين . إذ لو أحصى ما لا بد لهم من إنفاقه فى معاهد اللهو العامة ، لبلغ أضعاف مايقتضيه تنسيق البيت وترتيبه من النفقات

على أن الذى يضيع صفوة عمره خارج داره ، طالباً الراحة والهناء من التردد على القهاوى والحانات ، لن يتاح له التمتع بلذة الحياة ، البيتية ولا الفوز بفتيل من مزاياها الجمة التى عرفها المجربون

والقصد فى النفقة خير ذريعة لاقتناء الأمتعة الثمينة المتينة التى تعوّض ، بروائها ومتوعها ، أضعاف الفرق بين ثمنها الرفيع وثمن مقابلها من سقط المتاع

على أن فى الطريق عقبة كأداء ، كثيرا ماتحول دون نيل هذا الأرب . ذلك أن أصحاب المكاسب الطفيفة مضطرون ، بطبيعة حالهم، الى اشتراء حاجاتهم بالأجزاء لا بالجملة ، فلا يكون لهم محيد عن دفع ثمنها مضاعفاً ، مع أنها كثيراً ماتكون من سقط المتاع الذى يبلى سريعاً ولا يفيد أبداً

وأحكم وسيلة لتذليل العقبة ، أن يتجشم المرء مرارة الحرمان

والصبر ، ربما يوفر من ربحه مايسهل عليه اقتناء الأمتعة المتينة أو ادخار المواد الغذائية جملة ، بثمن أقل مما لو ابتاعها بالنسيئة أو أجزاء متفرقة

ومن آفات الوفر ، إنفاق المال المعروف بنفقة الجيب . فأنك ترى سواد الناس يضنون بالعشرين قرشاً مثلا فى اقتناء المتاع النافع المتين ، ثم هم ينفقون ثلاثة أضعافه فى اليوم الواحد، بدون أن يجنوا منها ثمرة . لانفاقهم إياها بالقهاوى ومعاهد اللهو، فى تعاطى المشروبات الضارة بالبدن والعقل ، والتصدق على غير المستحقين من المحتالين والمتزيين بأزياء الفقراء والمساكين ، وركوب المركبات لقطع المسافات القصيرة ، واتحاف الخدم بالبخاشيش واقتناء الخرثى[1] المموهة ، طلباً للزخرف الزائل الخ

ولو سألتهم عن بذلهم هذا في غير مواضع البذل ، لأجابوك إن هي إلا دراهم معدودة . ثم استرسلوا فى انتحال أعذار لسرفهم ما أنزل الله بها من سلطان

ليس من وجوه القصد وفر الجملة الكبيرة من المال كرة واحدة ، ووضعها فى حرز حريز لاتمتد اليه الأيدى ولا تطاول الأعناق . لأن الأحوال المفضية بالمرء الى مثل ذلك الوفر نادرة، بخلافها إذا دس يده فى كيسه ليخرج منه درهماً أو درهمين ،

---

(١) المتاع الردىء

فأنها لتكرارها فى اليوم ، لا يكاد يحصيها العدّ . ولو حسبنا ما نستطيع وفره منها في يوم ، ثم ضربناه فى عدد أيام العام ، لتبين أن فى قدرتنا فى هذه المدة ، توفير مالا يستهان به من المال

فواجب على المرء ألاّ ينظر إلى القيمة النوعية لما يبسط به يده من القروش أو كسورها ، فى كل آونة من يومه ، بل إلى ما يمكنه أن يستفيده إذا ضمّ بعضها إلى بعض

إن نصف القرش حقير القيمة فى ذاته ، غير أنه إذا أضيف إلى مثله ، مكرراً بقدر عدد أيام السنة (ومستحيل أن يقلّ ما ينفقه المرء يومياً فى التافهات عن نصف القرش) يتكوّن من مجموع ذلك نحو الجنيهين عدًّا . وهو مبلغ لا يرضى سوى السفيه المبذر ، ببذله فى موضع غير محقق النفع

وإذا فرض أن من الناس من يقتصد سنوياً مثل هذا المبلغ ، فأنه لا تنقضى أعوام حتى يتجمع له منه بضع عشرات الجنيهات ، أى رأس مال ، إذا لم يفده بالذات ، ربما أفاد من بعده ولده أو قرابته

ومن الواجب على العقلاء أن يفكروا فى وفر قرش أو قرشين أو أكثر ، كلّ على قدر همته ، مما ينفقونه جزافاً ومن غير حساب . فأنهم إذا فعلوا ذلك أو عودوا أنفسهم فعله فى أول عهدهم بالكفاح فى ميدان الحياة ، أصبحوا جديرين

بوصف المرتبين المقتصدين

وما من مثرٍ أنبتته الطبقة الدنيا فى أمة ، إلا وفي تاريخ حياته العظة البالغة لمن يروم الاقتداء به . والدليل الواضح على أن نجاح المرء يرجع الى ما يتجشمه من مشاق الحرمان المبني على القصد والترتيب ، أنه لولا هذا التجشم لما قبض على زمام الوجاهة والجاه بين قومه ، وأشير اليه بالبنان بين الأعيان

وبدهي أن ركوب المركبة غير ذات الدرج متعذر ، إذا لم يكن مستحيلا ، لما يعانيه طالب الركوب من مشقة الوصول الى مقاعدها والاستواء عليها ، ولأن الدرج تكفل للصاعد فيها الأمن من خطر التدهور والسقوط

وليس الترتيب والقصد ، فيما نحن بصدده ، إلا الدرج المؤدية بالصاعد فيها الى حيث ينال ثمار مساعيه وجهوده الطيبة . ولا صلة بين القصد ، وهو من النجاح والثروة بمنزلة الدعامة من البناء ، والبخل . بل هو بعيد عنه بقدر بعده عن الأسراف . ذلك لأنه إذا عدّ المقتصد عاقلا والمسرف مذنباً ، فلا محيص من اعتبار البخيل جانياً أثيما ، لأنه ببخله يحتكر ثروةً لا يستفيد منها ولا يترك السبل مفتوحة لاستثمارها ، فى أعمال ومشاريع يمكن أن يسترزق من العمل فيها عمال كثيرون

ومن لوازم القصد والترتيب التبصر فى المستقبل والاحتياط

له بوفر المال وادخاره ، لسد المفاقر الطرآنيـة . لأن الأعمال والمشاريع معرضة للأخطار غالبا ، فاذا لم يكن لدى صاحبها ما يدفعها به ، كان الخذلان حتما من نصيبه

وكثيراً ما يكون قاب قوس أو أدنى من النجاح ، فلا يحتاج فى الظفر به إلا الى ذلك المال المدخور . لذا يجب على من يفشل لأول مرة ، ألاّ يجعل لفشله سلطانا على نفسه ما دام المال موفوراً عنده ، بل أن يعيد كرة الجهد لأنجاح مشروعه

ولا ريب في أنه إذا استأنف عمله بنفس رضية وقلب مطمئن وجأش رابط ، يكون الى الظفر بمراده أقرب منه الى الفشل . أما إذا استأنفه فى تردّد وخوف وتفنج ، كان فشله فى الآخرة شراً منه فى الأولى

يستخلص مما تقدم أن من أهم أركان القصد وأوثقها للمرء ، أن يوفر حوله أسباب الراخة والطمأنينة أولا ، ثم يتفرغ لاستثمار ماله فى ضرب صالح من الضروب العديدة للاستثمار

وفى توفير تلك الأسباب وقاية من غموم المعيشة اليومية وهمومها . لذا كان من الواجب الاحتفاظ بها لضمانة السير على وتيرة واحدة فيما شرع فيه من العمل ، واتقاء الحيد عن الخطة المرسومة له ، ولو سنحت فرصة أخرى من أنسب الفرص وأضمنها لاستغلال المال . إذ لا بد فى حالة الاشتغال بالمشاريع

الطارئة من توقع مايحول دون نجاحها ، وإن تكن قابلة للنجاح بذاتها

وفى انصراف الخاطر عن الاهتمام بالأسباب التى تدعو ، في غضون المعيشة اليومية ، الى مسّ المال المدخور مايمهد للمرء الاستفادة برأس مال آخر لاحدّ لأرباحه وثمراته ، ألا وهو خبرته بالأعمال على اختلافها ووقوفه على أسرارها

وإذا كان العقل رائد القصد ، فأنه يصد صاحبه عن مناحى البخل ويقرن بالنجاح عمله . وإنما يشترط فى إصابة هذا الغرض أن يكون القصد معززا بالترتيب ، وواقياً لثماره النافعة من تطرّق العطب والفساد اليها

ولا يغربن عن الخاطر أن القصد مفتاح كنز لايفنى ، هو الاستقلال ، وأن الاستقلال فى العمل داعٍ الى توطيد الثقة بصاحبه . وحسب العامل المستقل أن يقال عنه إنه فى غنية عن معونة الغير له ، بل حسبه أن يرى الملأ يخصونه باحترامهم ويعجبون بنجاحه وتوفيقه ، وأن يزيده اعتدادا بنفسه استغناؤه عن الاستمداد بغيره

قال كارنجي وأجاد : « خليق بمن حرم نعمة الاستقلال في عمله ألاّ يعدّ نفسه من رجال الجد ، ولا يطمح الى تدوين اسمه في ديوان العاملين لخير أمته ووطنه » . وقال : « إن الذين

يهيئون وسائل النزول فى ميدان الحياة، ويجهزون من المال مالانجاح لمشاريعهم بدونه، أولئك هم سادة الأمم وقادتها إلى خير ما يرونه لها ولأنفسهم »

فليمعن القارىء النظر فى هذا القول الحكيم، الذى جعل قائله إعداد المال أساً لنجاح المشاريع الكبيرة. وليعلم أن مثل المستر كارنيجي لايرمى الى تمجيد من يجمعون المال للاغتباط باكتنازه، بل الى تمجيد من يستفزهم كبر الهمة للطموح الى المعالى، والنظر إلى الغايات القصية. أولئك هم الذين لايزجون بأنفسهم فى ميدان العمل والجهاد، إلا بعد التأهب لهما بالوسائط الكفيلة بالنجح والفلاح

وما الواسطة الأولى من هذه الوسائط، سوى عين الواسطة التى لا بد منها للنزول فى ميدان القتال، ألا وهي (المال)

فالمال عصب المشروعات، كما هو عصب الحروب كما يقولون. وهو لايتوافر إلا بالقصد والترتيب



٤

قوة الارادة وصدق العزيمة

الأرادة والعزيمة من ألزم الخصال لطالب النجاح ، وأحقها بأن تكون دائما نصب عينيه ومقدمة على غيرها من المحامد وكريم الشيم

وبين الأرادة والعزيمة فارق يستدعى الوقوف عنده هنيهة فأن الأرادة توطن النفس على الأمر ، وتعقد الضمير على ما يرى فعله . فهى من هذا الوجه تسبق العزيمة التى مع انبعاثها من الأرادة ، يترتب عليها إمضاء الفعل بلا تردد فيه ، واعتزامه الى أن يبلغ درجة الكمال

وليست الصعوبة فى استنباط الفعل المراد اعتزامه ، بل فى السلوك به الى القصد المطلوب ، بين العقبات المعترضة فى سبيله ، وهو ما لا يتأتى إلا بالأرادة القوية أولا ، ثم بالعزيمة الماضية ، أى بالصفتين الكفيلتين بأزالة تلك العقبات

والوصول بالأعمال والمطالب إلى الغاية القصوى من النجاح ، يقتضى أن ينبذ العاملون وراء ظهورهم نصائح من يريدونهم على

العدول عن عزمهم ، ويغرونهم باطراح ما أقروا عليه بعد الروية من الرأى ، وأن يعانوا صنوف الحرمان فى سبيل الغرض الذى يعملون لأصابته ، مع الاحتفاظ بأرادة الوصول اليه ، فى الميعاد المضروب له من قبل

قال الكاتب المفكر شاتوبريان : « تتغلب الأرادة القوية على كل شيء ، حتى على الدهر » فأذا اقترنت قوة الأرادة بمضاء العزيمة ، كان العمل المنتظر إنجازه بواسطتهما قويا كاملا

والعزيمة أصناف شتى ، منها :

عزيمة المنافسة . وهي التى تؤيد صاحبها فى ميادين المباراة مع المنافسين ، وتكفل له التغلب على العقبات الحائلة دون فوزه بقصب السبق .

وعزيمة الحذر . وهي التى تجانب به مصارع السوء ، ومزالق الحوادث الطارئة ، فتضمن له الوصول إلى الغرض بجأش ثابت وقلب مطمئن .

وعزيمة التريث والأناة . وهي التى تنيله بالرفق ، ما لا ينال بالعنف ولا بالمال . وهي أصعب أنواع العزيمة ، لما تتطلبه من الحزم والعلم بأساليب انتهاز الفرصة

وعزيمة الصبر لا تتوافر فى غير أقوياء الأرادة الذين رأوا ما فى الصبر من العواقب المحمودة الأثر ، وعملوا بقول القائل

لا تضجرن ولا يدخلك معجزة

فالنجح يهلك بين العجز والضجر

ومن الصبر المحمود الأثر ، ما يرمى إلى ترك مشروع ما حتى يتم نضجه ، ويحين أوان قطف ثماره . فأن ثروات كثيرة غيض ماؤها النمير ، فى ينبوعها الغزير ، لأن أصحابها عجلوا باستنزافها ولم يتربصوا حتى تبلغ الأمد الذى تكون فيه أغزر فيضاً ، وأوفر إيراداً وأعم بركة ، فكانت نتيجة تعجلهم ، في نهاية الأمر ، أن رضوا منها بمصة الوشل

ويتفق كثيراً للوافدين على ميدان الحياة العملية ، أن ينزلوا اليه عزلاً من سلاح المال . لأنهم يرون فى الربح العاجل، وإن قل ، ذريعة للخلاص من عذاب الحرمان الذى توجبه على طالب النجاح ضرورة التؤدة والتريث . أولئك هم الآخذون بمذهب من قال . « قليل عاجل ، خير من كثير آجل » . وفي الأخذ بهذا المبدأ ، خطأ وتفريط وجناية على مستقبلهم ، لأن مثل المتعجل كالبستانى الذى يبيع غصون الأشجار ، حاملة أكؤس الأزهار ، المبشرة بشهى الأثمار ، لحاجة عارضة آثر في قضائها أن لا يتربص بالأزهار استحالتها إلى فواكه وأعناب ، تجمع إلى لذة الطعم ، قوة التغذية وارتفاع الثمن إلى أضعافه ، لو بيعت أغصاناً وأزهاراً لم تنعقد بعد . فالأناءة واجبة كشرط للنجاح كما قال النابغة :

الرفق يمن والأناة سعادة
فاستأن فى رفق تلاق نجـاحا

ومن أجلّ أصول العزيمة، ألا تؤجل إلى الغد ما تستطيع أن تنجزه اليوم. لأنه من النادر أن لا يأتى الغد بعمله الخاص به، فأذا قمت فيه بعملك المؤجل، فأنك مرجيء لليوم التالى عملك فيه. وهكذا ترجيء عمل كل يوم لغير ميقاته، فيختل نظامك بما يفضى بك حتما إلى الفشل في سعيك وجهدك

على أنه إذا جاز، لباعث قهريّ، ارجاء عمل يوم إلى غده، ففي هـذا الأرجاء ما يسلبه جلّ فوائده المرجوة. فأن النجاح منوط على أداء الأعمال في مواقيتها المقررة لها، فأذا لم تؤدّ فيها ذهبت الجهود المبذولة فى سبيلها أدراج الرياح

ومن أهم أنواع العزائم عزيمة اليقين، وهي التى تتطلب من المرء، قبل إقدامه على عمل ما، أن يبحث فيه بحثاً مبنيـا على النظر والاستدلال، ليستوضح وجوه نفعه، ويحصـل له اليقين بأمكان إنجـازه، ويتقي الافتتان بمظاهره الخداعة، ويقنع ضميره بأفضاء السير فيه إلى الغايه القصوى من النجاح

ومنها عزيمة إمساك النفس على ما ينتابها من الضيق والتبرم فى النوائب المضجرة، وكتمانه إياها حتى على الأخصـاء من الأصدقاء، بل على الأهل والأقرباء. فأن مكاشفتك هؤلاء

بأمرك ، تفقدك مكانتك من نفوسهم ، إذا كنت معروفاً عندهم بقوة الأرادة ، ومضاء العزيمة ، والقدرة على مكافحة الحوادث . بل ربما انتزعت منك ما كان لهم من الثقة بك ، تلك الثقة التي تحمل الناس على تخير صاحبها للنهوض بجلائل الأعمال التي كثيراً ما يكون النجاح فيها فاتحة السعد ، وباكورة الجاه والمجد

وخليق برب الأرادة والعزيمة ، إذا خاصمه الزمن وحمل عليه بما يكرهه ، أن يتلقي حملته بجأش رابط ، وجنان ثبت ، ولا يتعجل فى حربه ، فأن محاربة الزمن لا يصلح لها إلا الصبور المكيث . وخليق به أيضا ، إذا أصابه من جرّى هذا الخصام بعض الهمّ ، أن يحوله الى حالة يبعث السرور بها إلى نفسه ، مع الحرص على كتمانه . لأن كتمانك الكدر من أمر ، يفلّ من حده ويحط من قوة تأثيره فى النفس ، فلا يلبث أن يزول عنها أثره . بخلاف مالو أفضيت به إلى الشارد والوارد ، فأنه على حقارته يتجسم فى نظرك ، وينزل منك فى منزلة الحادث الجلل ، والخطب المدلهم ، وليس هو في شيء منهما

على أنه ما كشف الدهر للمرء قناع عداوته ، حتي انحلت عراها ، ووهت أسبابها ، واندثر بتوالى الأيام أثرها . فأذا صارحت بها غيرك من أهل او قرابة او صداقة ، فأنك لا محالة نادم ندامة الكسعيّ على هذه المصارحة ، التي لا تجنى منها غير الحط

من رفعتك ، والأسقاط من جاهك

وكثيراً ما يعترض المرء من الحادثات ، ما يلقى في روعه الوهم بعجزه عن تخير الحرفة الملائمة لجرّ المغانم واستدرار الرزق. والأخلق به فى هـذه الحالة ، ألا يجعل للوهم مسربا الى قلبه ، بل أن يستنصح رويته فيما يلتمسه من الخير لمستقبله . فأذا تاق إلى أن يخلف أباه فى عمله ، فقد كفي نفسه مؤونة الحيرة فى الاختيار ، إذ عليه أن يمضى فيما رسمه أبوه من الخطط والمناهج لعمله . أو كان مضطراً بظروف خاصة الى اختيار منهجه بنفسه ، فقد أصبح ولا غنية له عن الاستمداد بأرادته وهمته ، والاستعانة برأيه ، فيما هو مقبل عليه من العمل لمستقبله

والواجب عليه عندئذ ألا يواثق نفسه على أمر ما ، قبل التروّى والأمعان فيه ، ليستجلي وجه الصواب منه ويتحامي مزالق الخطل . فأن المجازفة باعتزام أمر ، دون أن يتبين صبحه ويبرح خفاؤه ، داع إلى الندم وثبوط الهمم . وأقل ما يلحقك من الضرر بسببه شعورك فيما بعد ، بأنك لم تكن على شيء من التأهب والأهلية لأداء ما تصديت له من العمل ، فتصغر نفسك فى نظرك ، وتتلاشى همتك بين عاملين : ندمك على مباشرتك عملا لم ينتج إلا شراً ولم يورث إلا حسرة ، وحزنك على ما ضيعت فى سبيله من جهد ومال ووقت

فعلى الذين يهمون بخوض غمار المشروعات الحيوية والاعمال الدنيوية ، أن ينفذوا فيها بصيرتهم قبل البدء بها ، جليلة كانت أم حقيرة . ولا يبرموا فيها عقدة قبل أن يتوفقوا بشأنها لرأى سديد . وهذا وذاك لا يتوفران إلا إذا جمعوا شتات خواطرهم وأفكارهم ، وعرضوها على محك النقد الصحيح ، لتبين سمينها من غثها وصادقها من كاذبها

وإذا كان المتروى كبير الهمة ، مسدّد العزم ، فالروية لا تكبده أقل عناء بل تقوم منه مقام البديهة . لأنه ، وقد راضه الزمان بحوادثه ، وشحذ آراءه بتجاربه ، أملك لزمام نفسه وأحرص على تصرفاتها . فأذا ساورته شواغل لا ارتباط لها بالعمل الذى هو مقبل عليه أو ناوشته حوادث طرآنية ، تنصل بأيسر الأسباب من حبائلها المبثوثة ، ثم صرف تيار أفكاره وهمته إلى ذلك العمل وحده

ومتى تمّ له التروّى في مشروعه ، بأن قاسه بأشباهه وقدر له ما يمكن أن يعترضه من العقبات والحوائل ، واعتمد الخطة التى رسمها لنفسه فيه ، فقد وجب عليه حينئذ الاندفاع إلى الأمام ، بعزم لا يتطرّق اليه الكلال ، وأن يظهر من آيات الثبات والجلد ما لا غنى عنه لانجاز المشاريع وإنجاح الأعمال

وسيعرض لنا الكلام في الفصول الآتية على تلك الفضائل ،

ولكننا لا نجد مندوحة هنا عن القول بأنها مستمدة كلها من الهمة . ولا عجب ، فأن الهمة للنجاح فى الأعمال ، كحجر الزاوية من البناء

ولتستقرّ هذه الحقيقة فى خلدك ، عليك بالبحث الدقيق فى مناشيء الثروات الواسعة التى احتازها في هـذا العصر « ملوك المال » ، بل فحول الرجال الذين لا يسعنا إلا تمجيدهم والأعجاب بهم ، فأنهم نشأوا فى الفاقة فصاروا ، بكدّهم وكدحهم ، من ملوك الجاه والمال الذين تعنو لصولتهم الجباه

ولنضرب مثلا روكفلر ، صاحب عشرات الربوات من الجنيهات . فلقد بدأ حياته العملية ببيع صحف الأخبار فى الطرقات فتعلم بهمته وعزيمته القراءة والكتابة على نفسه ، وتفهم معانى ما كانت تنشره تلك الورقات ، ثم انتهى الأمر به إلى تخصيص بعض وقته ، لتلقى العلم في إحدى المدارس . وكانت سنه وقتئذ ، لا تزيد على الأربعة عشر عاما . فلما ناهز السادسة عشرة ، كان قد حصل على قشور من العلم أهلته للاستخدام عند تاجر بالعمولة . فمكث عنده مؤديا لعمله بالنشاط والأمانة والهمة ، حتى إذا بلغ العشرين ، رأى التاجر من هذه الصفات العالية ، ما حبب اليه اتخاذه إياه شريكا له

وفى عام ١٨٦٠ ابتدع فكرة تكرير زيت البترول ، فسما

هذا الاختراع به إلى ذروة الجاه والغنى ، وملك من الثروة ما لا يقل عن أربعين ربوة من الجنيهات

وهذا (كروبرتش) الذى برح بولونيا، مسقط رأسه، لا يملك سوى ٤٥ دولاراً . فأنه ماعتم أن ملك من الدور والقصور فى نيويورك ، ما لا تقل قيمته عن ٢٠٠ ربوة من الدولارات، أى ٤٠ ربوة من الجنيهات . وأول ما يعلق بالذهن لسعة هذه الثروة ، أن صاحبها بذل فى تحصيلها ما تشل دونه قوة أصحاب الهمم العالية والعزائم الماضية

كان حينما وصل إلى نيويورك ، لا يملك من دولاراته الخمسة والأربعين ، سوى دولارات تعد على الأصابع . وكان مع هذا الفقر المدقع جاهلا بالحرف كلها . ولكنه كان غنياً بهمته وعزمته ، فاتجر بادىء الأمر بالبضائع الصغيرة التى تعرض على السابلة ، وادخر من ربحه فيها ألف دولار . وما كاد يجتمع هذا المال فى يده ، حتى بادر بشراء قطعة من الأرض ، مؤثراً هذه الصفقة على كل صفقة سواها ، لما كان يأنسه في نفسه من الأهلية للمضاربة في الأملاك العقارية

على أنه لم ينحدر فى تيار المضاربة انحدار من يريد التخصص لها ، بل ظل يشتغل بالتجارة حتى حان الوقت الذى شهد فيه من وفرة أمواله ، ما يبيح له التفرغ لتشييد المبانى ذات الأيراد .

فتخصص لهذا العمل وبذل فيه جهده، حتى حاز من العقار الثابت ما يقوم عليه صرح ثروته البالغة الآن

والأمثال من هـذا القبيل كثيرة، نستطيع أيراد العدد الوفيرمنها . ولـكننا نجمل القول عن كبار المثرين، بأن الباحث في أحوالهم لا يتمالك من الدهشة، لما يراه من توافر العزيمة والهمة فيهم، الى حد أنهم جعلوا نصب أعينهم، اقتناص طائر الثروة والتفوّق في احتياز المال

ولو أن منهم من هالته مصاعب الطريق، فتولاه اليأس وتراجع عن إنفاذ عزيمته، أو فترت همته لحظة واحدة، لانهار البناء الذى شاده، وانقلب عاليه سافله ولعاد من الغنيمة بخفى حنين

وخليق بأبناء أولئك الأبطال، أن يفخروا بما خلفه لهم والدوهم من الثروات ، اكثر من افتخارهم بألقاب الشرف وشارات الرتب الرفيعة ، قائلين إن المجد المؤثل والشرف التليد لايكونان بالنسب العريق ولا بالمحتد الكريم ، وإنما بقوة المال يخلفه الآباء والجدود

فعلى الطامعين فى الثروة، أن يكرروا على الدوام كلمة : « أريد »مع عقد النية علي العمل بها . فقد قال (لا كوردير) : إن كلمة « أريد » لمن نوادر الكلم التى يعمل بها، وإن تكن شائعة

على الألسنة بالزعم الكاذب . والرجل الذى يحكم في معناها ، ويمتلك حقيقة مغزاها ، هو الذي مهما قعد به الحظ اليوم ، لابد أن تجده يوما ما متربعاً فى دست الثروه والجاه ، يؤدى الناس اليه إتاوه الاحترام والاجلال »



٥

الجد والاجتهاد

من آثر السكون على الحركة والراحة على العمل ، وجب أن لا يتطلع الى الفوز فى مضمار الحياة ، ولا أن يطمع فى أكثر من التعبد للغير في التماس شظف العيش . ولا جرم ، فأن إقامة أركان الثروة وتدعيم بنيانها يتطلبان ، مع العمل المنبعث من همة لا تنى وعزمة لا تفتر ، الدأب عليه فى كل آونة من النهار والليل . لأن المرء ، فيما يتصدى له من المشاريع الرئيسية ، تتجاذب همته أعمال كثيرة ، يتوقف على أدائها بلوغ تلك المشاريع إلى الغاية القصوى من النجاح . فأذا هو أخلد إلى الكسل والتوانى ، عاد من أمانيه فى النجاح بالخيبة والاخفاق وانطفأت فيه ، على توالى الأيام بتأثيرهما السيء ، أنوار مواهبه النفسية والعقلية

ما منا أحد إلا ويعلم أن الناقر على البيانو ، وإن بلغ من البراعة فى النقر الشأو الأبعد ، لا غنى له عن المران عليه في كل يوم ، لكيلا تفقد أنامله ما كسبته من السرعة والخفة والرشاقة فى الايقاع

ولا فرق فى ضرورة المران على الأعمال بين العقليّ منها

والبدنىّ. فأن العقل بلا مران، كالسيف الذى لم يرهف حده، غير خليق بطالب الفوز أن يتقلد به

وسكون المرء إلى الدعة والبطالة، مفسد لعقله وتصوره، طامس لآثار الحقيقة فى نظره، ذاهب بمرونة أعضائه، قاتل لنشاطها الذى يعاونها على مواصلة الحركة والسعي الى ما فيه مصلحته، باعث له على الشعور بقواه العقلية والبدنية كأنها أصبحت عبئاً فادحا عليه، لا يهمه فى حياته إلا أن يستوفز لنفضه عنه تخلصاً منه

قال العلامة (دى جراردين) : « العالم صولجان لا يملكه إلا المبكر » . وهو قول وإن بنى على الغلو والاشتطاط، لا يخلو من أثر الصواب . فلطالما رأينا الكسول الخامل غير مسدد الخطوات للنجاح وكسب المال، وأنه إذا احتاز ثروة من طريق المصادفة والجزاف، فقلما يستطيع الاحتفاظ بها

إن اليوم الذى يقضيه العامل النشيط دأبا على العمل، يبدو له قصيراً . وكذا عهد الشباب، لا يتناول من أدوار الحياة إلا ما كان منها قصير المدى . فأذا قضيت فى سريرك أوفق الأوقات للعمل وهو وقت الصباح، فما أنت إلا ندم لا تضع الأشياء فى مواضعها ولا تقدرها قدرها

ومن الأمثال الحكمية : « الماضى لا يعود » و « مافات

مات » . وهي أمثال يجب أن تنقش في صفحات الصدور، وتتخذ نبراساً نهتدى به فى ظلمات الحياة ، لنجعل نصب أعيننا أن كل لحظة تنفرط من سلك الزمن جزء من حياتنا ، ينفصل منها ليندرج فى طي العدم ، فنحرص كل الحرص عليه ولا ندع درره الثمينة تنفرط منه قبل أن نقضيها في عمل تعود فائدته علينا ، أو على الاجتماع الانسانى الذى نحن من أفراده

والخطة المثلى لمن يود تنظيم معيشته وترتيب أعماله ، بتوزيعها على أويقات حياته ، أن يسير فى ذلك على خطة مطردة . فيتخذ لنفسه سجلا يدوّن فيه ، بحسب تسلسل الأيام ، مواعيد اللقاء أو الزيارة المراد بهما إنجاز عمل أو الوفاء بعهد في الميعاد المسمي لهما .

فمتى هبّ من نومه وتأهب لمباشرة أعمال يومه ، وجب أن يبدأ بتدوينها فى ذلك السجل ، بحسب ما يناسبها من الأوقات ، على وجه يحول دون تدخلها بعضها فى بعض . فأن اختلاط الأعمال ، مفض حتما الى وقوع الخلل والاضطراب فيها

وإذا قرن تدوين الأعمال على المثال المتقدم ، ببيان نوع كل منها ، إزاء الساعة المعينة له، فقد كفي نفسه مؤونة إجهاد الذاكرة لمعرفة الميعاد المضروب للقيام به . وبرعاية هذه القاعدة فى ضبط أعمال يوم واحد ، تضبط الأعمال كلها فى الايام التالية له طبعاً.

مثاله : إذا عرض لك أن تعد أحداً باللقاء بعد يومين ، وقيدت هـذا فى سجلك ، فاياك والتعهد بأداء عمل آخر فى الساعة التى عينتها لذلك . لأنك إذا تقيدت بعهد ثان وآثرت الوفاء به، فقد ألقيت بنفسك فى ورطة الاخلاف مع من سبقت كلمتك اليه بوعد اللقاء به

ومن ثم ترى أن وضع البرامج للأعمال اليومية ، داع إلى توزيعها على وجه يتوافر معه الوقت اللازم للقيام بها فى مواعيدها ، وبغيرها فيما يتخلل هذه المواعيد من الزمن

ولضبط المواعيد أثر نافع في تشييد الثروة . إذ من طبيعة الانتظار أن يثير كامن الغيظ في نفس المنتظر ، ويورث كما قيل « الاصفرار » . أما التخلف عن الموعد، ولو بضع دقائق ، فيصرف الميول عن المتخلف ويفض القلوب من حوله . ويبعث على تحقيره والحط من مكانته . وهو إذا تجاوز بنصف ساعة الميعاد المعين في برنامجك لمباشرة عمل ما ، يؤدى لزاما الى الاخلال بمواقيت الأعمال المقرر عليك أداؤها بقية النهار . فتلبث معطلة أياماً، لما يعترض من الطوارىء التى تضطرك الى التسويف في إنجازها

والجد في العمل يتناول اليدوي منه والعقلي . إذ لا فارق بين هذين الصنفين في وجوب القيام بهما ، على حد سواء . ولا يفضل أحدهما على الآخر إلا الذين اعتادوا التشهير بالأعمال

اليدوية، والانتقاص من أقدار مزاوليها ؛ لما دخل نفوسهم من الزهو الباطل وحب الترفع على غيرهم، بالمظاهر الزائلة

قال كارنيجى : « خليق بالشبان أن يتدرجوا في مدارج الأعمال ؛ فيبدأوا بأحقرها وأدناها لينتهوا الى أشرفها وأسماها. فأنه لا ارتفاع يستطاع إلا بالصعود في السلم درجة فدرجة ، ولا تقدم الى الامام إلا بالسير في الطريق خطوة فخطوة . واعتبر بأسرياء مدينة بتسبورغ ومثريهم ، تجد أنهم ما كان لهم أن يصلوا الى ما وصلوا اليه من المعالى الخطيرة والاقدار الشريفه وتسنم الثروة ، لو لم يكابدوا الأعمال بصنوفها المختلفة ، ويعانوا صغيرها قبل كبيرها وحقيرها قبل شريفها ، ويقفوا على أسرارها التى ما استطلع أحد كوامنها إلا وفاز منها بالنصيب الأوفي

« ولو كلفت نفسك مؤونة النظر في تواريخ حياتهم ، لما ألفيت بينهم إلا من استلم المكنسة لتنظيف المحال التجارية التى اشتغل فيها ورفع القمامات بيديه . وإنه لمن المؤسف أن نرى الآن أمر العناية بالنظافة فى تلك المحال ، موكولا الى البوابين أو الخدمة المولجين ، في حين أنه من أهم أركان التربية التجارية لمستخدميها

« وخليق بمستخدم المحل التجاري ، إذا لم يكن لهذا المحل بواب أو كان بوابه غائباً ، أن يغتنم هذه الفرصة ليتولى تنظيفه بيده . لأن المستخدم الذى يملأ مابين جنبيه الأمل في أن يكون

يوما ما شريك مخدومه في عمله ، لا يهوله الأخذ بمقبض المكنسة للعمل بها من غير توان ولا ملل »

وهذه الحكمة رجيحة في نظر من يعتبر . ووجه رجاحتها أن صاحبها هو المستر كارنيجي المعروف بأنه مثال الجد والاجتهاد في عمله ، وأنه في إبان حياته العملية لم يأنف من أداء الأعمال الحقيرة ، وأنه لم يكن حوالي سنة ١٨٥٥ إلا عاملا صغيراً في أحد مصانع بتسبورغ ، فتعرف على المستر (وودروف) ، مبتكر فكرة عربات النوم في السكك الحديدية ، فاشتغل معه في ترويج هذا الابتكار . ولقد ربح من عمله فيه بضعة آلاف دولاراً كانت كل ما اتخذه أساساً لثروته التي عرف الناس طراً أنه أنفقها في وجوه الخير والبر : كانشاء المدارس والمستشفيات

وللاستفادة من الجد والاجتهاد ، يجب من بادىء الأمر صرفهما في الأعمال المؤكدة النفع المعينة القصد ، وإلا ذهبا ضياعاً . وكل جهد واجتهاد لا يستوفيان هذا الشرط ، يكون صاحبهما كالسنجاب في قفصه ، كلما خطا خطوة أو تحرك حركة دار القفص حول محوره ، فظن أنه مجدّ في السير ، دائب على العمل وهو لا يزال في الحقيقة مكانه ، لم يأت بعمل مفيد

وسواد الناس يشبهون السنجاب ، فيما يبذلونه من الجهود على غير جدوى . تراهم يطرقون أبواب الكثير من المطالب

العلمية والفنية فلا يحصلون منها ، لتوزع جهودهم وتبدّد قواهم إلا على القشور دون اللباب ولا يفوزون بثمرة ما من وراء جدهم ودأبهم ، ويحق عليهم قول العامة : « عرفوا كل الصنائع إلا النافع » و « سبع صنايع والبخت ضايع »

ولسائل أن يسأل : أو ينبغي الاقتصار في هذه الحالة ، على صنف واحد من الأعمال والتفرغ له ؟ والجواب . « إن التفرغ لعمل واحد ، محقق النفع بلا ريب ، ولكنه غير مستطاع في جميع الأحوال . إذ لا يخفى أن من العلوم والفنون ما يقتضى العلم به الاحاطة بعلوم وفنون أخر ، تتنزل منه بمنزلة الفروع من الأصول ، وأن الواجب ألا نغفل الانصال الوثيق بين الفرع والأصل ، وإلا ضاعت جهودنا في سبيل أحدهما دون الآخر

وكثيرا ما نشاهد من بعض المشتغلين مظاهر الحركة الدائمة قياماً وقعوداً ، جيئة وذهوبا ، صعودا وهبوطا ، أخذاً ورداً . فأذا تبينا هذه الحركات ، فلا نلبث أن نلفيها من النشاط الكاذب الذى لا ارتباط له بالجد والاجتهاد

ولقد وصف (پايو) هذا النشاط في كتاب (تربية الارادة) وصفاً دقيقاً ، في سياق قصة صغيرة عن طالب كان يظن في نفسه الجد والاجتهاد ، فقال : « كان هذا الطالب لا يكاد يبدأ عملا مدرسيا حتى ينتقل إلى غيره ، كالذبابة التي إذا طارت ، لا تلبث

أن تحط علي شيء ، ثم تطير ثم تهبط على شيء غيره — الى أن قال — وكان في النهار الواحد يتنقل من النظر في طائفة من المصنفات الباحثة في علم طبقات الأرض، الى تصفح مقال أدبي أو انتقادى من قلم أحد مشاهير الكتاب ؛ ومن التقاط بعض أخبار الصحف السياسية ،الى مراجعة مذكراته فى أحد الأبحاث الاستطرادية ، ومن ترجمة أسطر او صفحات عن لغة الانجليز الى استظهار نخبة من الأبيات الشعرية . وكان زملاؤه لا ينظرونه إلا مجدّا في البحث والتنقيب ، دائباً على العمل ، فلا يسعهم إلا الأعجاب بجده واجتهاده ، والثناء عليه لمثابرته وتنوع أعماله

« أما نحن فلا نقف في صفوف المعجبين به ، بل نقبح خطته ونفندها ونرميه بوصف الكسول الخامل . لأن الباحثين في الأحوال النفسية ، يرون في تعدد الأعمال وتنوعها ، دليلا على أن شيئاً من الالتفات لم يتكيف بالعزيمة وقوة الارادة بعد، ولم يخرج عن كونه شبه اجتهاد لا اجتهاداً صحيحاً ، متوافر في ذلك العامل المجدّ . ولكنهم يحكمون على أمثاله بضعف الأرادة وخور العزيمة وأنهم، علي مذهب علماء النفس ، نموذج الكسالى الذين إذا هموا بعمل ما ، بعثروا جهودهم وفرقوها على أعمال أخر متباينة ، فباءوا منها جميعا بالفشل والخسار

« نعم إن النفس جبلت على حب الأحماض ، واستطابة

التنقل من شجرة الى شجرة ، لتجني من هذه ثمرة ومن تلك ثمرة . إلا أن صاحبها لا يتجاوز أن يكون طالب رياضة ، يلتمس بها تزجية الوقت في غير فائدة دنيوية أو أدبية . وما كان الجد والاجتهاد يرميان الى مثل هذه النتيجة العجفاء »

وفي النوادر العربية أن أخوين كانا يملكان أرضاً آلت إليهما بالارث عن والدهما ، لكل منهما النصف . وكانا يدأبان على العمل في غرسها بالكروم وريها ، ويتنافسان في أن يكون محصول العنب لأحدهما في حصته ، أوفر منه في حصة أخيه . فلما دنا أوان الحصاد وجني الأخوان القطوف من كرومهما ، دهش الناس أن يكون محصول أحدهما أوفر بكثير من محصول الآخر ، مع ما بذله الاثنان من الجهود المتساوية ، في أرضين لا تختلفان عن بعضهما ، جودة تربة ووفرة محصول . ولكن سرعان ما زال الدهش ، حينما تبينوا أن ثاني الأخوين لم يقصر عنايته بالزراعة على الكروم ، بل تجاوزها الى صنوف أخر من النبات ، كان قد عني بغرسها هناك . فلما حان أوان القطاف ، لم تأته الكروم إلا بأعناب قليلة رديئة باعها بثمن بخس لم يف بسدّ مفاقره . ولو أنه اقتدى بأخيه في قصر همته على العناية بالكروم ، لأصاب من الربح مثل ما أصابه ، ولما قعد ملوماً محسوراً

في هاتين القصتين إشارة واضحة إلى وجوب صرف

الجهود نحو غاية معينة وغرض ثابت ، والتحامى عن توزيعها على مقاصد شتى . إذ أقل ما فى هذا التوزيع من الضرر ، أن يضيق علي العامل المجدّ مجال النظر والبحث اللذين يفتحان مغالق الأمور ، ويمهدان السبيل لأصابة الغرض الذى يرمى اليه باجتهاده وجدّه

وما قدر لأحد أن يندرج اسمه في ديوان الفائزين بالسهم الأوفي من الثروة ، إلا وكان من أصحاب القرائح وأساطين الابتكار . ولقد رأينا أنه لا سبيل الى إنجاح المشاريع الجليلة ، إلا باستجماع الجهود المشتتة وصرفها اليها ، وعدم الاحتفال بما يتراءى خلالها من المشاريع الأخرى ، ولو كانت محققة الفائدة والنجاح . ولا ثمرة ترتجي من الجهود المبذولة لأصابة غرض ، إلا بعد إعمال الروية في توجيه تيارها نحو هذا الغرض وحده . وإلا كان باذلها كالصائد الذى يقرطس سهمه ليصيب طائرين معاً ، فتكون النتيجة أنه لا يصيب شيئاً ، وأن يندم علي ما بذله من الجهود ضياعاً وباطلا .

٦

المثابرة

المثابرة مظهر فعلي من مظاهر الثقة بالمستقبل ، التى أسلفنا أنها أهم أركان النجاح ، وألزم شرط من الشروط المحققة للمراد والمسعفة بالحاجة

وإذ كانت الفرص التى تتاح للمرء جامعة لاسباب النجاح نزيرة جداً ، فالعاقل من يربأ بنفسه عن الاغترار بها والهشاشة لها ، إذا توافرت له بسائق الجزاف والمصادفة . فأن الثروة التى ينالها عفواً في الزمن القصير ، تفقد في نظره القيمة التى تكون لها ، لو أنه اكتسبها بالجهود المتعاقبة ، وكان كسبه إياها الجزاء الاوفي لجدّه وسعيه ودأبه

وبقدر ما يكدّ المرء في عمله ، يزداد حرصه علي ما يجنيه من ثماره ، فيحوطه برعايته صونًا له من التبدّد . أما إذا جاءته الاموال عفواً ، ودرّت عليه أخلاف النعم بدون أن يتكلف عناء فلا مناص له من تضييعه إياها بمثل السهولة التى ربحها بها ، مصداقاً لمثل : « مال تأتى به الرياح تأخذه الزوابع » . وليس ذا بمستغرب ، فأن الثروة الوطيدة لا يتأتى الحصول عليها إلا من

طريق العمل والجد ، وما استطاع أربابها تنميتها بالاستثمار ، إلا لأنهم اتخذوا لعملهم أسساً محكمة وأساطين قوية من المثابرة على أدائه

قال بوسويه : « حسبك ان تعمل قليلا في اليوم ، بشرط أن تعطي كل يوم مثل هذا القسط من عملك» . وهو من الاقوال الحكمية المشيرة الى ما في المثابرة من المزايا الجليلة ، ويحتم معها على طالب الفوز في معترك الحياة ، ان يحاسب نفسه كل ليلة قبل نومه . فأذا رأى أن نهاره تقضى ، ولم يضع لبنة جنب لبنة من صرح مستقبله ، أيقن أنه ذهب عليه ضياعا ، وسقط من أيام عمره

ولا يكفي في العمل أن تباشره في انتظام وترتيب ، بل أن تثابر عليه وتدأب . قال الحكماء : « لا تفوق علي الانداد ، إلا بمعالجة الصبر الذى يفتح مغالق الأمور ويذلل الصعب من العمل . ولا جرم ، فأنه لولا الصبر لما استكشف نيوتن نظرية الجذب العام ؛ ولما وفق غيره لابتداع الآلات التى قامت عليها المدنية في هذا العصر .

والمثابرة جمة الفوائد الى حد أن العامل ، إذا جعلها رائداً له في عمله ، تدهشه ثمار هذا العمل الذى التزم في أدائه جانب الصبر واطرح العجلة والجزع

وفى حوادث الكون وآثار الطبيعة ، شواهد جمة على تأثير الصبر والمثابرة في تحصيل المراد . فقد ذكروا أن السيول المتدفقة فى وادى (سان جرفيه) تحمل معها القليل من الرواسب الترابية ، بينما الامطار والمياه المتولدة من ذوبان الجليد وأهداف الثلج البطيئة الحركة ، تفتت فى كل عام جملة من طبقات الجدران الصخرية التى تهطل عليها أو تحتك بها ، فيتجمع من القليل الذى تأكله ، الكثير من الطمى المخصب للحقول الفسيحة

ترى من ثمّ أن السيل المتجمع من مياه الامطار والثلوج الذائبة ، يفتت الصخور الصلدة فى احتكاكه بها ، فيحفر فيها أودية بعيدة القاع ، كثيراً ما تشبه الانهار العظمي من كل وجوهها

وما قيل عن تأثير المطر والثلج فى الصخر الصلد ، يقال مثله عن البشر فيما يترتب من النتائج الكبرى على فعالهم المتفرقة . فأنه من الواجب أن تكون تلك النتائج ثمرة هذه الفعال متضامة بعضها إلى بعض ، بل هذه الجهود التى لو بحثت في كل جهد منها علي حدته ، لألفيت الفارق عظيما بينه وبين ما أفضى اليه بذلك الانضمام ، من النتائج الكبار . ثم اعلم أن الفرص التى تذلل صعوبة القيام بالعمل الجليل ، غير متاحة لك في كل زمان ومكان . لأن قوام العمل الجليل بشرطين : الاجتهاد والمثابرة .

بما ينتجانه من الجهود المتفرقة التى أسلفنا أن انضمامها الى بعضها يفضى حتما الى ذلك العمل الجليل

وما من عمل جليل او مشروع هامّ ، إلا وكفلت المثابرة نجاحه ، بشرط أن يقتل بحثاً وفحصاً قبل الاقدام عليه ، لاستطلاع قسطه من النجاح وتقدير ما يرجى من فوائده ، وإلا ذهبت الجهود المبذولة فى سبيله أدراج الرياح

وفحص المشاريع ، قبل الأقدام على مباشرتها لا مفرّ منه . فعليه يترتب الاقتناع بفائدتها والعلم بامكان القيام بها والوقوف على الصعوبات والعقبات التى تعترض تحقيقها ، فتأخذ التدابير الكفيلة بتذليلها . ومتى تمهدت أمامك الطريق ، أخذت فى الحال سمتك الى الغايه التى ترنو اليها لاتلوى على شىء

وإياك والجهد ، إذا كان مصدره التهيج العصبي . لأنه سرعان ما يتحول الى قوة غضبية لايملك صاحبها نفسه عندها من التهور المفضى الى فتور العزيمة واليأس . وإذكان الظفر بالمراد يتوقف علي اقتران عزيمة المثابرة على العمل ، بالانصراف إلى مزاولته من أقرب الطرق ، فليس التهور بالخصلة التى يتذرع بها لنيل ذلك الظفر

وقد شبه الحكماء المنحرف فى سبيله عن الغرض المطلوب بعالم ورد فى بعض القصص، أنه أفني صفوة عمره فى تحقيق موقع

مغارة قديمة قالوا إنها تحتوى كنزاً ثمينا ، وأن هذا الكنز ملك لمن يستكشفه . فأخذ سمته اليه حاملا غرارات كبيرة ليملأها ببعض ما احتواه الكنز من الخيرات والنفائس

وكانت الطريق التى سلكها للوصول إلى الكنز كثيرة الوهاد والنجاد ، تتشعب فيها الصخور الصلدة . وإنه ليغالب صعابها ، إذا بنسيم هبّ فحمل الى خيشومه شذا أزهار متفتقة عن أكمامها . فالتمس مكان هذه الأزهار ، فأذا هى بأقصى ما يلتقي نظره به من مهب الريح . ولقد اختلجت نفسه بالشوق الى الانصراف نحوها لتتمتع بشميمها الطيب ، فلم ينحدر خطوة فى طريقها حتى حدثته نفسه بالعدول ، فعدل مستأنفا قصده الى المغارة ، ولكنه لم يلبث أن أحسّ بعناء شديد من أوعار الطريق ، فانطلق ثانيا فى سبيل آخذ منها ليستقي من عين ماء ، لاح لألاؤه البلورى فيها . وكان قد اعتزم العودة الى الطريق الاولى لمتابعة السير الى المغارة ، غير أن شغفه باستطلاع موضع الأزهار ، التى كان شذاها لا يزال عابقا فى خياشيمه ومؤثراً فى نفسه ، انحرف به فى السبيل المؤدية اليه فانحدر فيها ، ثم تغلغل فى سبيل أخرى آخذة منها ، وضرب فيها موغلا ، فلما همّ بالعودة والتمس الطريق الاول ، لم يجد أمامه إلا سكة ضيقة حفت بها الصخور الحادة ، وتكدست فوقها الأحجار ، فسار فيها . ولقد ناله

من الأعياء ما اضطره الى الاستظلال بشجرة كثيرة الأغصان كان على شدة بعدها عنه يعتقد قربها منه ، فتكبد فى الوصول اليها صنوف المشقة والعذاب

وتعاقبت على صاحبنا الأيام ، وهو يتحرى طريق المغارة فلا يجده ، ثم اهتدى فى آخر الامر اليها بعد تردد ممل وحيرة مضنية . ولكن ماذا رأى حينما اهتدى اليه ؟ رأى قوما يحملون على اكتافهم غرارات تنوء بهم لثقلها ، وتولاه من اليأس ما كاد يرديه ، حينما علم أن القوم كانوا قد حققوا مثله موقع المغارة ، وأنهم لما شدوا اليها الرحال ، لم يثنهم عن طريقها الشذا العطرى الذى حمله النسيم اليه ، ولا الماء العذب الذى أخذ لألاؤه ببصره ، بل دأبوا على السير لا يلوون على شىء ، فسبقوه اليها وبعد أن ملأوا غراراتهم بما كانت تحتويه من جواهر غالية ، ونقد كريم ، وأعلاق نفيسة ، وتحف نادرة ، جعلوا عاليه سافله ثم انقلبوا إلى أهلهم فرحين بما أخذوا من ذلك الكنز الثمين

ومن الوهم الشائع ، اعتبار المثابرة عنتاً وتصلباً ، كلما أتت بنتائج على عكس ما تقتضيه المصلحة ، أو أبطأت هذه النتائج بعض الزمن

العنت هو المثابرة ، ولكن على عمل يعرف منذ البدء عدم صلوحه أو يكون الشك فى فائدته متغلبا . وهو من هذا

الوجه خلة مذمومة ، وسجية مرذولة ، وإن يكن القصد منه محموداً . والفرق بينه وبين المثابرة ، أنه مبني علي فكرة فجة أو رأى فطير . وسببه حالة فى النفس تحمل صاحبها علي حب الاتصاف بأصالة الرأى والتصون عن الخطل ، وإن يكن بعنته قد دل على فساد رأيه وعجز حيلته . ومن مظاهر العنت فيه ، أنه مع استمساكه بالرأى الفاسد والفكرة الخاملة ، ينتحل الوجوه الكثيرة لتأييدها

فالعنت غراس لا يعطى صاحبه إلا الثمر الردىء ، وطريق يفضى بسالكه إلى شر الموارد . ومن أوكد مضراته وأعجلها أن الجهود التى تبذل بسببه تذهب ضياعا ، وأنه يفتح لليأس المسارب إلى النفس فيطفيء فيها جذوة النشاط والهمة

أما المثابرة فتزود صاحبها بما هو مفتقر اليه من عزم وحزم ، لمعاناة مصاعب الحياة والصبر على شدائدها . ولن تزلّ قدم المثابر عن مزالق القنوط ، إلا إذا كان ممن ضلّ سعيهم وفشلت جهودهم . على أنه ، إذا كبا يوما ، سرعان ما ينهض من كبوته ، أمضى عزيمة وأنشط همة وأطيب نفساً لاستئناف السير فى طريقه ، ومغالبة ما قد يعترض له فيه من العقبات

ولن يقع بصرك على رجل من أصحاب البأس والارادة ، إلا وهو ممن أخلفوا مطالبهم فى أول عهدهم بالجهاد فى الحياة ، ثم

لم يلبثوا أن نهضوا من عثرة الأخفاق ملتمسين طريدة النجاح آخذين عليها الآفاق ، حتى وقعت فى حبائلهم

وأمثال هؤلاء خليق بهم أن تثلج صدورهم بما ظفروا من أمانيهم ، وأن يغتبطوا بما منحوا من نعمة الصبر والمثابرة التى أتاحت لهم التغلب على ما اعترض لهم من الصعوبات فى الطريق

ومن شروط النجاح ، حصر الجهد فى وجه واحد من وجوه الأعمال ، أو فى عدة أوجه ترجع الى أصل واحد وتتجه نحو غاية واحدة . فقد قال كارنيجي : « أحمق من يقول ـ لا تضع كل بيضك فى سلة واحدة ـ نعم أحمق من يدلى بهذه النصيحة إلى غيره ، لأن الواجب أن تضع بيضك كله فى سلة واحدة ، على أن لا يصيبه ضرر ما »

أراد كارنيجي بهذا القول تبكيت من يصرفون جهودهم والتفاتهم ، الى ألف صنف وصنف من الأعمال . لأن الأعمال إذا تعددت أنواعها وتشعبت فروعها ، أهمل صاحبها بعضها قسراً للعناية بالبعض الآخر ، وهذا الأهمال يرجع إلى عجزه عن مزاولتها جميعاً بحالة واحدة من الأتقان . وقد علل ذلك فى مثل البيض « بتعذر حمل السلال الكثيرة منه وباحتمال أن لا ينجو من الكسر والعطب بعض ما يوضع منه فيها »

ومن الأمثال الحرية بالذكر على المثابرة والمثابرين ، ما جاء في بعض تواريخ مدينة تونس ، وهو أن بحيرتها كانت قبل خمسين عاماً متصلة بحيّ العرب ، الذى ينتهى إلى باب فرنسا المعروف الآن « بباب البحر » ، فعنّ لامرأة من نسائها أن تردم بالتدريج تلك البحيرة المتنائية الأطراف . وقد قامت بهذا العمل مستعينة عليه بصبر يفلّ الحديد ، ومثابرة لم تصرفها قط عن الغاية التى وضعتها نصب عينيها ، إذ ظلت عشرين عاما تدعو ساقة المركبات المنوط بهم نقل الأقذار والأرواث من باطن المدينة ، إلى إلقائها فى نقط عينتها لهم من البحيرة . وكانت تنقدهم في مقابل ذلك قليلا من المال . فلما تحولت تلك الأقذار والفضلات ، بمضى الزمن ، إلى كتلة صلبة ذرعها طولا مئات الأمتار ، اشترتها من الحكومة بمبلغ زهيد ، وأقامت عليها بيوتا من الخشب أجرتها لمهاجرى جزيرة صقلية . فهل تدرى ، أيها القارىء ، ما صار اليه هذا الحي الحقير بعد ؟ صار الحي الأوربى الجديد ، أجمل أحياء تونس على الأطلاق ، بمبانيه المنجدة وصروحه الشامخة الباذخة ، وطرقاته العريضة القويمة . صار كذلك بعد أن كان قبل الأربعين عاماً أو الخمسين مستنقعاً للمياه الآسنة

ولا يزال أبناء تلك المرأة وأحفادها ، يملكون القسم

الأوفى من تلك القصور ، ويستغلون من ريعها بضع ربوات من الفرنكات كل عام . وهم المثال الحي لمن كان فى شك مريب من المثابرة ، على صدق أثرها فيمن يتخذها رائداً له فى أعماله

وكتب الأمثال والحكم عند الامريكيين ، حافلة بأنباء الذين بنوا ثروتهم على المثابرة والصبر ، وعملوا فى تحصيلها بما ذكرناه من الفضائل التى ، لولا المثابرة ، ما ظهر لها أثر جليّ فى أحوال الانسان . وفيها مقنع بأنه ما عالج المثابرة أحد ، إلا وبلغ إلى المقصد الأسنى من النجاح والسعادة

من ذلك أن (روبرت) واشنطن ، أحد العبدان في الولايات المتحدة الامريكية . كان قد جعل المثابرة رأس الفضائل التى تحلى بها ، فسمت به إلى ذروة الثروة والجاه بعد أن كان فقيراً خاملا ، ورفعته فوق معاصريه بعد أن كان عبد رقّ . ومن أظهر حوادث حياته ، أنه كان سفيحاً شبّ لا يعرف أهلا يفيء إلى ظلهم ، ولا محسنا يقوم على تربيته . فلما ناهز الرابعة عشرة من عمره ، هجر مسقط رأسه لا يملك من عرض الدنيا سوى خمسين صلديا ، أى ما يعدل أربعة قروش صحيحة . فوصل الى بلدة (رشموند) وليس في جيبه درهم نقد ، فقضى بعض ليله هائما على وجهه تتقاذف به طرقاتها ، والبعض الآخر نائما

تحت الجدران . فلما كان اليوم التالى ، التمس من فوره عملا في مدرسة . فكلف بتنظيف غرفة المطالعة في مقابل أجر زهيد

وما مرّ عليه ، بعد هذا الحادث ، ثلاثون عاما حتى اشتهر فى طول البلاد وعرضها ، بأنه زعيم العنصر الأسود ، وعميده الداعى إلى تحريره من نير الاستعباد . وكان يضرب بمثابرته المثل ، فأنه لم يكتف بتلك الزعامة ، بل أنشأ الجمعيات والمدارس ليجعلها ذريعة إلى تأييد مذهبه ، ومجازا إلى تحقيق مراده بعد موته

جاء فى بعض الحكم العربية « أن الصعود لا يكون إلا بالدرج » . وهي من الحكم البالغة لبيان ما بلغ العاملون اليه من الدرجات العالية والمقاصد البعيدة . واعتبر بالمتفرغين للمسابقات الحديثة ، تر أنهم لم يجدوا مساغا إلى بغيتهم من السبق ، إلا بالأشواط القصيرة أولا ، ثم بالمراحل الطويلة ، وبالطيارين السابحين فى الأجواء تر أنهم كانوا ، أول ما طاروا ، لا يقطعون إلا المسافات القريبة ويعكفون على ذلك ، حتى إذا استوثقوا من أنفسهم ، وراموا المرام البعيد ، بذلوا من المجهود لادراكه أضعاف ما بذلوه أولا ، ونفوا عنهم الخوف من تجشم الأهوال ومكابدة المصاعب ، وقضوا ردحاً من الزمن للتدرب على الطيران فى

الآماد البعيدة حتى غلبوا الأطيار فى تحليقها بالطبقات العليا من الجوّ . وما أدركوا هذه الغاية إلا بفضل المثابرة التى ليست هى إلا ذلك المران متصلا غير منقطع ، أثناء تلك المدة

نعم ، لقد لقي الكثيرون من الطيارين الحتوف ، بهويهم من تلك الطبقات العلوية ، والتمستهم الأرض بقوتها الجذبية فذهبت أشلاؤهم بدداً . ولكن الأخلاف من بعدهم لم يجدوا ، حينما اعتبروا بعبرتهم ، إلا الشهرة الذائعة والثروة الواسعة

فأذا كانت العزيمة والهمة تبثان فى النفس الأقدام على اقتناص طريدة النجاح ، فأن المثابرة فى مقدمة الفضائل الكفيلة بالظفر بها ، على شرط أن يندمج العمل بها فى العمل بتينك الفضيلتين

٧

البديهة وحضور الذهن

يتطلب الفوز بالنجاح صفة يعدها الغافلون من الصفات العرضية الزائلة، وهي في الحقيقة من أخص ما اعتمد الكثيرون عليه في السمو إلى المراتب الرفيعة، والغايات القصوى. نريد بتلك الصفة البديهة التي تكفل في الغالب، بما ينطوي تحتها من حضور الذهن وسرعة الخاطر، الفوز بالمقاصد المرموقة.

حقاً قد تكون الحاجة إلى البديهة، أقل منها إلى الهمة والاجتهاد والطموح. إلا أن الجمع بينها وبين هذه الفضائل الجوهرية، ضمين لمن أحرزها بالسبق على من لم يحرزها سبقا فوق الأمد. ولا جرم، فبالبديهة تستكشف في الوقت عيوب العمل الذي أنت مقبل على معاناته: فأما أن تهمّ بأصلاحها وتمضي فيه لا تلوي على شيء، وإما أن تعرض عنه إذا رأيت أن في ذلك مصلحتك

والبديهة خير وقاية تدفع بها عن نفسك تأثير الحجج التي يقيمها مناظروك لاقناعك بأمر ما. فأنك تستطيع بها الانبراء

لتفنيدها ، بما توحيه إلى خاطرك من الاعتراض الصحيح والجواب المفحم ، وتوفقك له من السرعة في حل المسائل الوعرة ، ونقض ما يبرمه خصومك لك من الكيد وأنت ماض في عملك ، والوقوف بينهم بحيث لا يلتوى عليك أمرك ، فتستجلى على الفور وجه الفائدة من مشروعك الذى طرحته فى مطرح البحث والتمحيص ، وتقدر ما ترجو اقتطافه من ثماره ، وتحكم الروية فى صنوف المعاملات التى تربطك بالغير ، فتنجز ما هو محقق النفع منها لك ، أو ما يكون خصومك قد عجزوا عن القيام به ، لانهم لم يضربوا فى فضيلة البديهة بسهم فأصبحوا يرون فى الاقدام على جلائل الأعمال خطراً يتهدد كيان ثروتهم

وبالبديهة نحسن سياسة الحديث ، فنصرفه عما يضادّ مصلحتنا إلى ما يلائمها ، ونضطر خصمنا إلى العدول عن خطته التى يستشف الفوز من ورائها ، ونزجّ به في مضيق لا يجد لنفسه مخرجاً منه ، أو نبثّ له المعاثر فنستفيد من سقوطه فيها وتخلفه عندها السبق إلى تحقيق آمالنا ، وبلوغ الأمد الأقصى من مقاصدنا دونه

وللبديهة أثر لا ينكر فى استسهال الصعب وجلاء الغامض وإصلاح الفاسد ، على شرط اقترانها بصدق النظر وصواب الرأى ومضاء العزم . فلقد ذكر (جوهانيه) فى كتابه (حول عالم

الملايين) للتنويه بهذا الأمر نادرة جمعت إلى طلاوة الفكاهة حلاوة الصدق . قال : ثارت بين المثريين (جاي جولد) و (فندر بلت) عاصفة التنافس ، وناهيك بها إذا ثارت بين اثنين من أساطين الثروة فى العالم ، على جلب الماشية من (بوفالو) إلى (نيويورك) . وكانت أجرة النقل وقتئذ ١٢٥ دولارا عن المركبة الواحدة . وكان فندر بلت مطلق اليد فى شركة سكة حديد نيويورك سنترال ، إذ كان له القسط الأوفي من سهومها . فخفض ذلك الرسم إلى ١٠٠ دولار ، فعارض جاي جولد هذا التخفيض بمثله ، إذ جعله على سكة حديد شركة إيريا ٧٥ دولارا . واحتدم التنافس بعد ذلك ، فهبطت شركة نيويورك سنترال فى التخفيض إلى ٥٠ دولاراً . فانحدرت شركة (إيريا) به إلى ٢٥ ، فجعلته تلك الشركة دولاراً واحدا . ولم يبق مجال بعد للتخفيض على ما هو ظاهر ، وأيقن الملأ أن (جاي جولد) سيكف يده ويخرج من ميدان المناقصة . ولكنه لم يكن من أصحاب الغفلة والخمول ، حتى ينكص على عقبيه فى ميدان لا يحرز قصب السبق فيه إلا اليقظ البعيد مرامى النظر . لأنه ما هبط سعر النقل إلى دولار واحد، حتي اغتنم هذه الفرصة فاشترى جميع ماشية (بوفالو) ونقلها بهذا الرسم الطفيف على خطوط شركة نويورك سنترال ، وهو رسم لا يعدل جزءا يسيراً من نفقات النقل . وكادت تؤدى

بديهة (جاي جولد) إلى هلاك (فندر بلت) أسفاً وكمداً ، لولا ما تدرع به هذا من الصبر وتملل من الرضى والاحتمال

فلولا حضور ذهن (جاي جولد) وسرعة خاطره ، فى تلك الساعة العصيبة ، لذهب ضحية منافسة لا قبل له بها ، مع خصم عنيد كمنافسه . لأنه لوكان أتيح لفندربلت أن يدرك على البديهة ما أدركه هو ، لما استطاع أن يتنصل من نقل ماشيته على سكته الحديدية ، بمثل ذلك الأجر الضئيل الذى يعدل فى الحقيقة جزءا صغيراً مما يكلفه النقل ، ولخسر خسارة فادحة

ولا بدّ هنا من التفرقة بين البديهة والتبصر . فأن هاتين الفضيلتين ، وإن جمعتهما أواصر القرابة فيما ترميان اليه من النتائج ، تختلف احداهما عن الأخرى اختلافاً محسوسا . فأما التبصر ، فمن حيث كونه صنفاً من التمييز يبعث فى نفس صاحبه الشعور بخطر التطوّح فى عمل ما ، والاغترار بفوائده المرجوّة . فهو إذاً مظهر من مظاهر التروى والاحتياط ، واضح التأثير فيما نعتمده من الأعمال ، وإن عنّ لنا فى سديم من اللبس والغموض . والغرض منه استكناه حقيقة الشيء ، بتمحيص الحوادث والظروف المرتبطة به ، وقياسها عليه قياساً يدعو إما إلى العدول عنه وإما إلى المضيّ فيه

وأما البديهة فهي التبصر معجلا . ووجه الفارق بينها وبينه ،

أن التبصر يفيد فى تقوية الأعمال وتوثيقها ، بينما البديهة تقيها شر الانهيار ، وتحول الخرائب والأطلال الدارسة إلى مبانى شامخة وآثار باذخة

ولمعترض أن يقول : إن هاتين الخصلتين قلما تجتمعان في واحد ، ويسأل عن الذريعة لتحصيلهما . فالجواب : إن الخصلتين توافرتا فى الكثيرين ، وأن الذريعة لتحصيلهما الثبات الذى يذكى فى النفس نار الهمة ، ويؤدى إلى الغاية القصوى من الثروة والجاه

فإذا استقر رأيك على أمر ، وشمرت للقيام به ساعد الجد ، فاستعن على إنجازه بذكائك المستمدّ من فضيلتي اليقظة والبديهة اللتين تصونانك عن الزيغ في حكمك على الأشخاص والأشياء

واعلم أن البديهة سلاح ماض فى قبضة المحدّث . فإنه ما دار الحديث مرة بين اثنين ، إلا وقد تزعزع ركن المحق منهما واضطرب حبله ، إذا اعتمد مناظره فى إدحاض قوله على السفسطة . نعم إن السفسطة ليست من الصواب فى شيء ، ولكنها كثيرا ما تبغت المحق فتلزمه الحجة ، فيدركه العيّ والحصر . ولقد ينصرف المناظر السفسطائى بعد ذلك ، فسرعان ما يثوب خصمه المقهور إلى السكينة ويندم ، لأنه لم يقرع الحجة بمثلها . وتتوارد على خاطره الأجوبة السديدة والأدلة

التي لو جاءته على البديهــة ، لاستطاع أن يصدّ بها مناظره وأن يدحره ، ثم تلوح له أشباح الفرص التي لو كان اغتنمها فى الوقت المناسب ، لنال من مناظره بقوة الحق ، ما نال هذا منه بالباطل المبنيّ على البداهة وقوة الأفحام

والأجابة على البديهة في مقام الأفحام ،هبة فطرية لا رابطة لها بالعلم والدرس . فاذا لم تكن على أرث منها ، فدرّب نفسك على إرسال القول السديد والرأى الصائب ، ذاهبا فيهما مذهبا مطابقا للحق والعدل ، تترتب فيك ملـكة البديهة على وجه يكسبك الاعتقاد بأنها منوطة بقوة الأرادة ، أكثر منها بالأرث عن الفطرة .

على أن العلم بطرائق الأفحام في الوقت المناسب ، من أوجب ما يضطلع به الطامح إلى النجاح والفوز فى ميدان المعاملات . فلقد ذكرت صحيفة « الطان » ، في عددها الصادر بتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩٠٧ ، أن المستر (وايتلى) التاجر المشهور فى لندن بعنوان (المورّد العام) ، وصاحب أكبر مخزن للاتجار فيها كان ، فى عنفوان أمره ، يتمرن على المعاملات فى حانوت صغير لبيع الأقمشة . فادخر من كدّه مالا جعله حصته فى شركة مع زميل له ، هى الشركة التى أصبحت باتساع نطاقها ، معروفة باسم (مخازن وايتلى المورد العام) لبيع واشتراء كل مايخطر بالبال

من البضائع المختلفة

قالت تلك الجريدة: «إن المستر وايتلى كان على جانب عظيم من الهمة والعلم بأسرار الأعمال، وكان على نصيب وافر من قوة الابتكار وسرعة الخاطر، فابتكر ذلك اللقب لنفسه مسندا اليها القدرة على توريد كل ما يمكن أن يقتني بالمال، لافتا بذلك اليه نظر الجمهور في مشارق الأرض ومغاربها

«أراد بعضهم اختباره ليتأكد أهليته لتلك التسمية، فسأله أن يبيعه فيلا ضخما، فلم تمض أربع وعشرون ساعة حتى كان الفيل الضخم بين يديه. وسأله آخر تابوتا قديما لأحد الموتى؛ فما هي إلا ساعة حتى كان التابوت فى بيت طالبه. وعهد اليه ثالث بتوريد قدح من البراغيث الحية اليه، فعهد فى الوقت الى أحد مستخدميه إنجازه. ومما كتبه بقلمه فى هذا الموضوع قوله — سألني المستخدم عما يجب أن يعمله بإزاء ذلك الطلب؛ فأجبته: إنجازه على الفور. ثم كتبت إلى المستر (بارتلت) مدير حديقة الحيوانات والمستر (جامروك) تاجر الضوارى راجيا منهما أن يمشطا ما عندهما من القرود، لاستجماع ما يتخلل شعرها من البراغيث. فحصلت بهذا الرجاء على نصف قدح من هذه الحشرات، بعثت بها من فورى الى الطالب، مع كتاب ذكرت فيه أن المقدار المرسل من البراغيث هو قصارى ما يمكن أن

يوضع منها فى قدح واحدة ، وأنه إذا ترك النصف الباقى خاليا ؛ فما هو إلا لكى تتنفس البراغيث بما فيه من الهواء الضرورى لحفظ حياتها ـ . . . »

هذه النادرة اللطيفة تفيد أن المستر (وايتلى) كان يجمع الى البديهة ، قوة الاقناع والأفحام . لأنه لو لم يستعن ببديهته وسرعة خاطره ، على استنباط هـذا العذر المضحك ، عذر العطف على البراغيث ، لقامت حجة الطالب عليه بالعجز عن أداء طلبه ، وهو إرسال قدح ممتلئة بالبراغيث ولامتنع عن دفع الثمن

والبديهة عون كبير للمرء فى الكوارث الفجائية . إلا أنه لا بد من اقترانها بالجلد بل من اقتران الجلد بها ، لأنه فى هذه الحالة الأصل وهي الفرع . فأذا تقرر هـذا فلا يكون للمستحي حظ فى البديهة ، لان الحياء ضرب من الجبن تستره العفة . فهو ينافي الشجاعة ويقتل الأرادة التي تنزل من تصرفات المرء بمنزلة الدفة من السفينة . ولا يجعل لأصحاب الطبائع المروّعة ، حظا فى الأسراع إلى الأقرار على أمر أو الاضطلاع بمسئوليته فيه ، إذا عنت ضرورة للمبادرة بأنجازه . وما ذلك إلا لحرمانهم من الاستعداد العقلى المؤهل للبتّ ، على البديهة ، فى أمر ما من الأمور

قال الفليسوف (روسو) فى كتابه (اعترافاتى) : كنت لا آنس

في نفسي القدرة على التفكير ، إلا إذا تزودت بالجلد ورباطة الجأس . والمدهش في أمري أنه ، بالرغم من ذوقي السليم ونظرى الثاقب وملاحظاتى الدقيقة ، كان لايتاح لى إظهار براعتي في ذلك إلا بالتمهل فى التروى . وكان يتفق لى أن أبتكر ، على البديهة ، رأياً أو فكرة . ولكن بشرط التزام العزلة والاستغراق فى التأمل . وما من مرة قلت فيها شيئاً أو عملته على طيرورة . إلا وأيقنت بفساده . على أنني كنت ، متى فلتت منى فرصة القول على البديهة ، لا ألبث أن أتذكر ما كان ينبغي لى أن أسوقه منه ، فيترافد على ذاكرتى وصف المكان والزمان والصوت واللحظ والحركة والسكون وكل مافاتنى متعلقا بالحوادث ، جليلها وحقيرها ، وبالظروف المحيطة بها . بل كنت أوقن أن كل ما يعمل أو يقال ، قد سبق لى النظر فيه ، وأنى لم أكن فيما أتصوره من ذلك مخدوعا ولا زائغا عن الصواب »

نعم ، إن ضعف ذاكرة الفيلسوف روسو ، لم يمنع من نظمه فى سلك من أنجبتهم فرنسا من النوابغ . وتحلى بهم جيد تاريخها العلمي والفلسفى ، وأنه كان من الفضل الراجح والعلم الواسع بما يعد ذكره تحصيل حاصل . ولكننا مع الاقرار بهذه الحقيقة ، لا نحسبه من رجال الأعمال . بل تقول إنه إذا وصل اسمه الينا مكللا بالمجد والفخر ، فلم يكن هذا لثروة أصابها أو لتوفيق

أحظاه به حسن الطالع فابتكر مشروعا قامت عليه سعادة أهله ورفاهيتهم من بعده، وإنما هو لمجرد علمه وفضله

وللبديهة، كما لغيرها من محاسن الخلال، عدوّ لدود. هو التهوّر الذى يتصف به أولئك الذين إذا باشروا عملا ما، ظهروا فى مظاهر الهمة والنشاط، حبا فى أن يؤثر عنهم أنهم من العاملين وما هم فى الحقيقة إلا من الكسالى الخاملين، أو الآخذين بأعمالهم على غير هدى. فتراهم يخبطون فيها خبط عشواء فى الليلة الظلماء

فبون ما بين التهور وما نحن بصدده من البديهة بعيد جدا ولا محل للمقارنة بينهما. فأن البديهة دليل على قوة الأرادة وصدق العزيمة. وهى الأداة النافعة فى يد من يبنى عمله على فكرة طال اختمارها فى الذهن، وإن جاء بروزها على البديهة.

فالمستر جاي جولد مثلا، حينما بدت له الحيلة التجارية التى أشرنا اليها لم يبادر بتنفيذها على الفور، بل تركها تختمر فى ذهنه. ثم قلبها على وجوهها المختلفة، وقدر ما ينجم عنها من الفوائد، فاطمأنت نفسه عندئذ إلى الاستعانة بها كأداة، لمنافسة خصمه العنيد، فنزل رابط الجأش ثبت الجنان فى ميدان التنافس معه، فلم يخرج منه إلا ظافراً عليه

أما المستر وايتلى فأنه إذا أمر عماله بالأجابة على كل طلب

يرد اليـه ، ولو كان غير مألوف ، فما هو إلا لاعتقاده بقيام محله التجاريّ على أحكم نظام ، ولثقته بالقدرة على إجابة مطالب عملائه من غير استثناء

والتهوّر هو التطوح فى مشروع ما ، قبـل التأكـد من نجاحه وتبين غثه من سمينه وضرره من نفعه . والمتهور هو الذى يفقد رباطة الجأش ، فتراه عرضة لسهام الفشل التى يرميه بها في مقاتله ، إفلات الفرصة التى عليها يتوقف نجاحه ويتم مراده

وفى تحرّي الهمز واللمز في القول ، ويل لـكل همزة لمزة ، وخسار له ، وفساد يتعذر إصـلاحه . لأن الهمز واللمز فى الحديث يصـدفان بالمتكلم عن عطف السامع وميله ، إذا ساءه ما يجيء فى معاريض القول من الـكناية والتلميح

وبالجملة فمن كان من قوة الارادة وصـدق العزيمة بحيث يستطيع أن يكون حاضر الذهن سريع الخاطر على الدوام ، فهو الملحوظ بعين العناية ، النازل فى ميدان التنافس الحيوى فى عدة لم يتح لغيره أن يتأهب بها . وهو الذى يدرك طريدة المقاصـد السَنية فيفوز بقنصها ، وكل الصيد في جوف الفرا .

٨

الاصغاء والالتفات

الأصغاء ضربان، أحدهما الأصغاء من حيث هو صفة تهيىء صاحبها لتصور معنى ما يلقي عليه من القول ، فهو إذاً فضيلة يجب على طالب النجاح أن يسمو اليها ، ويطمع في التحلي بها .

والآخر الأصغاء الذى تستعين ، باللباقة وحسن الحيلة ، على إيقاظه في نفس محدثك ، ليميل بسمعه اليك ويتجه بالتفاتة نحوك ، فلا تكون غفلته عنك باعثا على فشل مساعيك عنده ، وخيبة آمالك فيه

وخير الذرائع إلى حمل من تحدثه على الأصغاء لقولك والتوجه اليك ، معاملتك إياه بمثل ما تريد أن تعامل به منه . وهي لا تكون إلا بتوطين الأرادة والهمة على حسن الأصغاء له ، فالهمة والأرادة هما الأساس اللذان عليهما يبنى الانتباه الذى إذا خلت المحادثة منه ، أخطأ الطالب مطلبه وانصرف عن مزادة ، بعد أن علل النفس ، باطلا ، بأمنية الظفر به

والأصغاء من حيث هو فضيلة جديرة بالأجماع على مزاولتها

وبأن تكون حلية المرء فى المجالس محدثاً أو سامعاً، لا يستفاد إلا بترويض النفس عليه، حتى يصير ملكة فيها وديدنا لها . وهذا الترويض يهون بقدر ما يتوافر فى النفس من الاستعداد الفطرى له، أو بقدر ما يبذل من الجهود فى سبيله . على أن هذا الضرب من الاصغاء يحتاج فى أدائه إلى شروط عديدة، إذا أغفلها المرء محدثاً أو سامعاً، أوغرت الصدور عليه وأسقطت منزلته، وأوصلت اليه من الأذى والحرج ما قد يتعذر عليه اتقاء شره، مهما تكن الذرائع التى يتوسل بها إلى ذلك

ومن فوائد الاصغاء، أنه يقوى الذاكرة وينبهها إذا ضعفت أو غفلت . فلقد يتفق فى أحيان كثيرة أن تعلق بالذاكرة ذكرى حادث تافه بذاته، ثم يكون انتقاشها فيها سبباً لازاحة ستار النسيان عن حوادث أخر يترتب على ظهورها نفع جزيل . والشواهد كثيرة على أنك إذا نبهت من تلتمس معونته على حادث متعلق به، ثم أفضت فى الظروف التى أدت اليه، أو تدرجت منه إلى التفكير بحوادث أخرى يلذه سماعها لعلاقتها به، فقد أثرت فى نفسه تأثيراً يبعثه على الميل اليك، والمبادرة بقضاء الحاجة التى من أجلها طرقت بابه

وثمة أحوال يمكن، لارتباطها بالاصغاء، اتقاء عواقب النزق والطيش بواسطتها، مثاله : أن يسأل أحدهم آخر، سهواً،

عن صحة شخص من أهله يعرف أنه قد مات ، فأنه إذا أخذته الغفلة لدرجة ينسى معها مخالفة هذا السؤال للذوق السليم ، فقد حجب عن نفسه كل خير كان يتوقع وصوله اليه ، على يد ذلك المسئول

ثم إن فى الانتباه ما يزع المرء عن قول السوء في حق خصومه ، وعن الجهر بآراء وأقوال تؤذى السامع فى عقيدته التى اليها يذهب ، وبها يتمسك . وخليق به أن يجعل قولهم : « لا تذكر الحبل فى بيت المشنوق » نصب عينيه ، وإلا كان من الحمق والغفلة الجهر بما لا يتفق من القول ، مع أدب المتكلم ولا مزاج السامع . وأنه ليكفيه ، لاتقاء شبهات الغفلة والبعد عن مظانّ سوء الأدب ، أن تنبس شفتاه بكلمة قبل أن يدرك ، على الفور ، كنه أطوار مخاطبه وميول من يلتفون به من الناس ، فيجرى فى كلامه معهم على مقتضى مألوفهم ، ولا يعمد فيه إلى شيء ما من الألماع والتعريض .

وصاحب النسيان والسهو قلما يكترث بهذا الاحتياط أو يقيم له وزناً . فتراه لهذا السبب يطلق الكلمة من فيه فلا تستقر فى الأسماع حتى تزيد في عدد أعاديه ، لما تنطوى عليه من التعريض الموقظ لنائم الحقد ، أو يجيء فى معاريضها من حوادث حقيقة بأن تدرج فى طي الكتمان لا بأن يلوكها اللسان

وإذا كان المتكلم زكي المنبت حسن التنشئة، تحامى الخوض في أسرار الناس، وربأ بلسانه أن يأكل لحومهم . فأذا لم يكن على شيء من ذلك، عجز عن تبرئة نفسه من سوء القصد فيما يلقيه من القول المبني على الغمز والتعريض . لذا كان بدهيا أن تنفضّ من حوله ميول من يلتمس الاستعانة بجاههم على تحقيق مراده ونيل مبتغاه .

ولقد فرطت من كثيرين أشباه هـذه البوادر، فجزعوا بعد سقوطهم فيها، فكانت عاقبة أمرهم أن انحطت هممهم وانقبض رجاؤهم، وانطلقوا في طرق الاعتذار متخبطين

ولو كانت بهم مسكة من العقل، لأدركوا أن الاعتذار يذكر بالجريرة ويسجلها على المعتذر المتورط فيها، لأن الاعتذار الصادر عن النسيان والغفلة، قلما يأمن صاحبه السقوط فيه مرة أخرى . وخليق بالمخطيء، إذا كان شريف القصد في حديثه، ألا يبني اعتذاره على الغفلة، بل على سبب محمود ولو لم يكن صحيحاً، معاهداً نفسه على أن يتنبه حتى لا يسقط في معاثر الغفلة والنسيان أبداً .

وليس الأصغاء مجرد حصر النظر في أمر ما، بل إحاطته بأمور أخر يجب التيقظ لها أثناء الحديث، حتى لا يترتب على أغفالها فشل المسعى وخيبة الأمل .

قال (روهريك) : « أطلق كلبك على الفريسة ، تر أنه لا يلبث أن يتجه اليها ويطاردها لقنصها . فأذا أدركها وثب عليها باذلا فى قنصها جهدا يسميه العلماء بالجهد الموجب

« غير أن الكلب يجانب ، أثناء طلبه الفريسة ، الأشجار والعقبات والمهاوى المعترضة له فى طريقه ، ويتحامى الاصطدام بها أو السقوط فيها ، حتى إذا لم يبق شىء منها ضبط حركته وصوّب اتجاهه نحو الفريسة ، دافعاً بنفسه اليها بجهد يسميه أولئك العلماء بالجهد العارضي أو السلبي

« هذا الجهد ، قلما يلحظه متتبع حركات الكلب ، ولكنه من الأهمية بحيث يتوقف عليه نجاح المطاردة بالوثبة الأخيرة على الفريسة واقتناصها »

أراد روهريك بالفريسة هنا الغاية التى نطلبها ، وأشار إلى أن الواجب فى طلبها ، بذل الجهود العارضة أو السلبية التى توقى اليقظ الملتفت خطر الاصطدام بالعثرات والعقبات المانعة من بلوغ القصد ونيل المراد من أقرب طريق ، فلا يلبث أن ينقلب إلى أهله ظافراً بغنيمته ، فرحا بفوزه ، متمثلا المعاثر التي اعترضته فى طريقه ، ذاكرا ما بذله من الجهود لاتقائها

ولا يكفى في استفادة ملكة الالتفات واليقظة ، مجرد الرغبة فيها والميل اليها . إذ الواجب على طلابها أن يروضوا

نفوسهم عليها ، شيئاً فشيئاً ، حتى تصبح ديدنا لها . لأنه إذا حسن بالمرء أن يلاحظ وأن ينقش ملاحظاته فى صدره ، فمن التفريط أن يهمل هذه الملاحظات دون أن يستفيد منها

على أننا إذا لم نحتفل بالمشاهدات والملاحظات التى يعرض لنا القيام بها ، ولم ننزلها المنزلة اللائقة من عنايتنا مع ترافدها على الخاطر ، فما أسرع ما ينمحي أثرها من لذاكرة لما يتجدد من بواعث الملاحظه والنظر في أمور أخر ، فنحول اليها التفاتنا عما عرض علينا منها قبلا ، وقد تكون فيه الفائدة المرجوة فنحرم منها بهذا التنقل الذى لامسوغ له .

وهل أدعى إلى الملالة والسأم ، من الأصغاء إلى قول من تحدثه ، إذا كان لاهياً أو ناسياً أو متنقلا من موضوع إلى موضوع من قبل أن يسترعيه ، أو ذاكراً من كل مسئلة مقدماتها دون النتيجة أو نتيجتها دون المقدمات ؟

وحديث الساهى والناسى والمتنقل لا يستقيم له ظل ، لاعوجاجه بالنقص والخلط والاضطراب وبنتة الأحماض . وهو إذا خوطب فى أمر ، تعذر عليه فهم موضوعه ، لسهوه عنه وانصرافه إلى وساوسه . وما أجدره في هـذه الحالة ، بأطلاق وصف العجز عليه ، بعد ما ظهر من قصوره الفاضح عن أداء مراده فى قالب سهل الملتمس على الأفهام ، أو خالٍ من شائبة

الاستطراد الذي لا يصيب الملتفت منه إلا التعب والملل ، بدون أن يهتدى إلى الغرض مما يسمعه

فالالتفات فرض عين على من يروم التدقيق فى النظر والاستدلال ، وينصرف بهمته إلى هذه الغاية التى عليها المعوّل كله فى استكناه أسرار الحقائق ، وحل معضلات المسائل ، والحكم على الأشياء والأشخاص حكما صحيحاً منزها عن الأهواء

ولقد أشار (روهريك) أيضاً إلى ذرائع النظر وطرائق الاستدلال في قوله : « يهتدى العالم النباتى إلى نبات لم يكن يعرفه من قبل ولم يقرأ عنه فى الكتب شيئاً ، فما الذى يجب عليه أن يعمله حياله ؟ الواجب عليه أن يتحامى الرأى الفطير ، ويتحاشى الحكم السابق على أوانه ، فلا يجهر فى أمر ذلك النبات برأى باتّ ، بل يتفرغ بادىء ذى بدء لدرس أعضائه ، التماس الوقوف على حقيقة كيانه . فأذا توصل إلى شيء منها استأنف النظر فيه بقصد المقارنة بينه وبين أشباهه فى المملكة النباتية ، حتى إذا اهتدى إلى فصيلة أضافه إلى برنامج أنواعها النباتية »

وما أفاد المرء شيء كالتفاته الى محدثه ، وتفهمه معانى ما يقوله التفاتاً وتفهما يطابقان الأدب ، ويتفقان مع مقتضى الزمان والمكان ، فأن ميل الملتفت الي المحدث أثناء الحديث ، يستتبع

حتما عطف هـذا عليه ورعايته له ، إذا كان من أصحاب الجاه والنفوذ . وما أكثر الذين فازوا بالحظوة لدى العظماء ، بما أظهروه من أدب وانتباه أثناء استماعهم لأحاديثهم

قال دانجن : « لا يكسف بال الخطيب كشعوره بانصراف السامعين عنه ، وعدم احتفالهم بكلامه . والأصغاء للخطب والأقوال حتى المسهب المملّ منها والتافه العاري من الفائدة ، فضيلة امتاز بها القليلون ، لأنها لا تتوافر إلا في الذين كرمت أخلاقهم وطابت سجاياهم . ولقد كانت هذه الفضيلة مطية الكثيرين ممن حازوا قصب السبق فى مضمار الثروة والجاه »

ومن النوادر المأثورة فى هذا الموضوع ، أن أحد قواد الجيوش السابقين ، كان فى عهد تقاعده يتردد على صديق له من المصورين ، وكان يتناول العشاء عنده مرة فى الاسبوع مع بعض من صحبه . وكان كلما انفضوا من حول المائدة واجتمعوا للسمر ، روى عليهم حادث عبور جيشه نهر (بريزينا) . وكان المدعوون ، كلما شرع فى سرد هذا الحادث ، يتأففون ويميلون عنه ، إلا المصور ، فأنه كان لحسن أدبه وكمال تربيته ، يصغى إلى القائد فى حديثه ، كأنه يسمعه منه للمرة الاولى

ولقد توفي القائد بعد ذلك بزمن ، فلم تمض أيام على وفاته ، حتى استدعى كاتب العقود صاحبنا المصور وقرأ عليه ما يأتى

من وصية القائد : « وأوصى لفلان المصور بمبلغ ١٠٣٠٠ فرنك ، جزاء ما كان يبديه لى من جميل الرعاية وحسن الالتفات ، أثناء روايتى على سمعه نحو المائة مرة واقعة اجتياز جيشى لنهر بريزينا . . » الخ

ولا ريب فى أن استفادة عشرة آلاف من الفرنكات ، مقابل قضاء نحو مائة ساعة فى سماع حادثة سبق الوقوف على تفاصيلها ، ربح لا بأس به . ففى الالتفات ، كما رأى القارىء ، مغنم عظيم يستطيع الذكي أن يضاعفه إذا أيد ذكاءه بروح من الالتفات فيما انبرى له من العمل . لأن الالتفات يكسبه فائدتين ، الأولى أن محدثه يسره التفاته اليه ، وقد يكون من أصحاب الجاه والنفوذ فيفيده بجاهه ونفوذه . والثانية أن الحديث قد يكون مهما ، فاذا أبدى فيه رأيا صالحا ، أيقن المحدث أنه على روية وأصالة رأى وبعد نظر وجم أدب ، وهى صفات لا ينتظر له منها إلا الخير كله

ومن ممقوت العادات ، التلهى عن المحدث وعدم الاصغاء إلى قوله ومطالبته ، من حين إلى حين ، باعادة ما قاله . فان السامع الذى لا يعى من بادىء الأمر ما يلقى عليه من القول ، قلما يصغى اليه إذا تكرر على سمعه ، وربما بدرت منه حركة تدل على استهتاره بفروض الأدب ، وعدم مبالاته بمحدثه ،

فيتهم نفسه بسوء التربية والغفلة

ورجال الجد يترفعون طبعاً عن مخالطة اللاهى الذى لا يعبأ بأقدار الناس، ولا يحافظ على أدب الحديث معهم، بل يتحرون الاختلاط بالمؤدبين المهذبين الأكياس، لأن الأدب ضمين لصاحبه بتحسين الظن فيه، ومقنع في حالة ما يعهد اليه بعمل، بأنه أجدر من غيره بالثقة فيه والركون اليه

وفى الالتفات وقاية من غلطات كثيرة تؤدى إلى نقيصتين، النسيان الضار والأغضاء الجارح. وكلاهما يشعر بعدم اكتراث صاحبه بما يجب عليه لغيره من الاحترام والتوقير

ومن الناس كثيرون، خليق بالعقلاء أن يعتبروا بهم. فلقد كانت الثروة منهم فى متناول اليد، ثم أفلتت لمجرد كونهم لم يصدقوا وعدهم باللقاء.. فأن عدم الوفاء من نقائص الذين حرموا نعمة الالتفات واليقظة، أو الذين لم تستوف نفوسهم هذه الفضيلة. فتراهم لا يحفلون بما يعقبه الأخلاف من الضرر والأذى أو يعتذرون عنه، لغباوة ركبت فى طباعهم، بالنسيان أو غيره من المعاذير الباردة التي لاكتها الألسنة كثيراً، فلم تعد تنطلى على الأسماع. وكان الأخلق بهم، بدلا من الاستمداد بالكذب فى دفع مسئولية الأخلاف عن عواهنهم، أن يروّضوا أنفسهم على الدقة فى أداء أعمالهم وترتيب الأوقات لكل عمل منها،

حتى لا يكون الخلط بين العمل والزمن ، حائلا دون الوفاء بالمواعيد فى أوقات الفراغ

ويستدعى النجاح من ضروب الانتباه واليقظة ، فوق ما ذكرناه منها ، الانتباه الذى يجىء من طريق المران ، وعليه كل المعول فى استخلاص نتائج الحوادث من مقدماتها الصحيحة

مثاله : إذا لاح فى حادث ما ، أن لزيد من الناس صفة تميزه عن غيره ، فقد وجب النظر فيما إذا كانت المصلحة تستدعى توثيق الرابطة أو حصرها فى دائرة ضيقة ، وهو ما لا يتيسر إلا بالأصغاء للتفاصيل الجزئية من أقوال المحدث وإشاراته ، إصغاء يتم به توثيق تلك الرابطة ، إذا كان فيها فائدة ترجى

قال روهريك : « ضل رجل عن السبيل ليلا فى أرض مقفرة . فبعد أن هام ساعة على وجهه لمح ضوءاً باهتاً ضعيفاً ، لم يدر أضوء نار متقدة هو ، أم ضوء مصباح منبعث من نافذة . فلما رام استجلاء وجه الحقيقة ، بحث عن ذلك الضوء أثابت هو أم متحرك ، كبير أم صغير ، متلألىء أم باهت ، مقترن بصوت انسان أم بنباح كلب أم بقرقعة مركبة

« ولو كان هذا الضال ممن راضوا أنفسهم على استطلاع الحقائق ، لوقف فى الوقت على حقيقة الضوء ، ولم يضعها فى موضع الحدس والتخمين ، ولدبر فى الحال وسائط الدفاع عن

نفسه أو التمس النجدة أو فعل بيقظته وانتباهه ما يستدعيه الموقف الذى يقف فيه »

على أن صرف الالتفات إلى أمر ما ، لم يكن آخر ما ينبغى للمرء أن يقوم به للفوز فى معترك الحياة . إذ لا بد له أيضاً من أن يحرك فى نفس محدثه ، ساكن الالتفات اليه ، لكيلا يفوته الغرض الذى يروم إصابته بمحادثته إياه . وخير الذرائع لذلك ، أن تبث الشوق فى نفسه إلى استطلاع مرادك ، والوقوف على كنه ما تحدثه به من أعمالك ومشروعاتك

وطرق التشويق تختلف باختلاف الظروف . فأذا كان واسطته الأعلان والنشر ، فقد وجب أن يبنى على لفت القارىء إلى الأمر الذى تبغي إنجاحه ، بعبارة تبث فيه روح الطمع ، مع الأشارة إلى النقط الجوهرية منه ، وبيان وجوه أهميتها ، وتوخى وسائل الترغيب في بسطها ، واستفزاز القارىء أو السامع إلى مقارنة الأمر المعلن عنه بالأمور الأخرى ، ليعلم الفرق بينه وبينها ، فيفضله عليها ويحببه فيه دونها

ويتفق أن يدرج فى الأعلانات المشوقة ، من الخلط والخبط ما يتلقاه الجمهور بالأغضاء والتسامح ، إذا كان فيه شيء من المزح والمطايبة أو بعض ما يستملح من الأغراء والتغرير . وليس فى الأعلان المفرغ فى هذا القالب ما تخشى مغبته ،

إذا استهوى القارىء لمطالعته، ما دام أن المقصود به مجرد التشويق إلى تلاوته

وتجنب فى تنبيه الخواطر بالأعلان، تجانس الأنماط وتشابه الأوضاع، دفعاً للسأم عن قرائها. ودع المبالغة فيها بقصد التأثير فى نفوسهم، فأن المبالغة الشديدة داعية أبداً إلى الضجر والملالة، مثيرة للريب المغرى بعدم التصديق. لأن الاعتماد على الحيلة في لفت الناس إلى أمر ما، قلما يجىء بالثمرة المرجوة. كلا، بل أنه يمحو من الأعلان كل أثر للجد، فتنبو الأنظار عنه بدلا من أن تنصرف اليه

وثمة أمران جدير بالكيس اللبق أن يتقيهما، إذا رام لفت الغير اليه، أولهما اعتماده على الألحاح فى لفت محدثه اليه، فأن الألحاح مفض إلى الضجر، والضجر مفض إلى عدم الاكتراث. والثانى الاستطراد الذى تتشعب به أجزاء الموضوع، فيضل السامع بينها، ويطوح به بعيداً عن نقطته الجوهرية

ومن الواجب احترام العمل الذى يرمى به إلى النجاح، ولو كان حقيراً صغيراً، ما دام فيه ما يلفت النظر. قال تاجر ينصح لابنه :

« لا يشغل بالك، فيما تتصدى اليه من عمل، أن يكون صغيراً أو كبيراً. بل اجعل همك أن تنجزه وأن يكون إنجازك

إياه مطابقاً للمراد منه . فأذا فعلت ، فقد جذبت الى نفسك الأنظار ، وهو كل ما ترجوه للفوز في معترك الحياة »

وكان الحكيم (هلفسيوس) مطلعاً على مزايا الالتفات ، إذ عرّف النبوغ بأنه « الالتفات متصلا غير منقطع » . وهذا التعريف على ما فيه من مغالاة ، يتفق مع ما ذهب الكثيرون اليه من تعظيم شأن الالتفات ، وأنه من الفضائل القيمة والوسائل المؤدية إلى الغايات القصوى من النجاح

فواجب على من حرموا نعمة الالتفات ، تعويد أنفسهم إياه . وحسبهم فى ذلك أن يكونوا على شيء من الهمة . لأن الهمة تعاون صاحبها على ترتيب أفكاره وتنسيقها على الوجه الكفيل بنجاحها

ومن جنى هذه الثمرة الشهية ، بجده وكده ، فقد دوّن اسمه فى سجل المرشحين للنجاح ، والسبق إلى أبعد الغايات فى هذه الحياة



٩

حسن البزة وجمال المظهر

البروز للناس في بزّة حسنة وهندام يسترعي الانظار ، محمدة يرضى المرء بها نفسه وأهله ومعاشريه . والبروز في شكل زريّ ، منقصة يسيء بها اليهم ، إذ يصدم أبصارهم فيما تحراه من المرئيات الجميلة التي ينشرح برؤيتها الصدر وتقرّ العين

وإذا كان حسن البزة مطلوباً من الناس أجمعين كواجب أدبيّ واجتماعي ، فأنه فرض محتوم على رجال الأعمال ، لما يترتب عليه من نجاحهم في معترك الحياة

نعم ؛ ليس في قدرة النـاس كافة أن يكونوا من حسن التقويم ، بحيث تسترعي بزّتهم الابصار ، ومن الغنى بحيث يتجملون بالخزّ والديباج ، ولـكن في عناية المرء بعض الشيء بثيابه ما يخله هيئة كفيلة بميل الأفئدة اليه واجتماعهم على احترامه ومحبته

وليس في قدرتهم أيضـاً ، ولا في مكنة المتصدّرين منهم لاحتياز الثروة المؤملين أن يؤوبوا من جهادهم في سبيلها بأكاليل

الظفر ، تجديد ثيابهم بما يحمل الناظر على الاعتقاد بأنهم لا يلبسون إلا جديداً . ولكنهم إذا دأبوا على العناية بثيابهم ، وأحسنوا سياستها في لبسها وحفظها ، بدت للأنظار دائماً كأنها جديدة لم تلبس ، وجعلت لهيئتهم من التأثير فى نفوس الناظرين ما يكون لها لو كانت جديدة بالفعل

وأهم ما يطلب من المرء في بزّته ، أن تكون جامعة بين البساطة والليق . فأذا كان المصوّرون في العهد القديم ، مثلا ، قد اعتادوا إرسال الشعور إلى الأكتاف ، وهي من العادات غير المألوفة في عهدنا ، فليس لطالب الشهرة والنبوغ فى فن التصوير ، أن يبرز للناس في هذه الهيئة الشاذّة التى لا تنهض دليلا على نبوغ صاحبها ، ولو كان نابغة فعلا

على أن مخالفة المألوف فى اللباس أو تسوية شعر الرأس ، إذا كانت جائزة لعادات أصبحت ، بمرّ الزمان ، طبيعة ثانية وديدنا ، غير جائزة فى زمننا ، مع من يتوخونه ، لمحض التقليد والاقتداء والأعلان عن النفس ، من ذلك الأسلوب الغريب

وخليق بالطامح إلى الحياة العالية والعامل بجدّه على تدعيم مستقبله ، أن يدبر لنفسه هيئة تجمع إلى النظافة حسن النسق والتناسب ، وتدعو إلى التوقير والاحترام ، وتحول دون الانتقاد والملام

فلا تخرج إذاً عن الزىّ المألوف ، إذا أردت أن يحترمك الناس . وإلا كان مصيرك مصير من أطرحوا هـذا المبدأ ، بما بنوه بأيديهم من العقبات الحائلة دون نجاحهم فحرموا أنفسهم ثمراته ، بعد إذ كانوا منه قاب قوسين أو أدنى

واعتبر بنفسك إذا هممت بتقديم صديق لك إلى كبير أو ذى جاه خطير ، ثم لم تجد هذا الصديق على ما يليق من حسن الزىّ والهندام ، أكان يأخذك التردد فى تقديمه اليه أم كنت تعدل عنه قطعياً ؟ لامشاحة في أن أول ما يمر بخاطرك إنما هو العدول ، لأنك موقن أن الهيئة الزرية تنبو العين عنها ولا ترتاح النفس اليها ، وأنك لو قدمت صديقك إلى ذلك الكبير لاتهمت نفسك عنده إما بالتجرد من سلامة الذوق ، وإما بقصد التهكم عليه والازدراء به . وكلاهما كفيل بتعكير المودة بينكما إلى الأبد

وثق بأنك إذا اصطحبت في الطريق من يسترعى أنظار المارة بغرابة زيه ، تسيء إلى نفسك عند عارفيك منهم . فخليق بك إذا لم تجد بداً من مخالطة من هذا شأنه ، أن تخالطه فى دارك او فى مكان متوار عن الأنظار ، حتى لا تتهم بسماجة الذوق فتتعرض لأذى المجانبة والامتهان من ناحيتهم

ومما تجب الدراية به اختيار الثياب بحيث تلائم أحوال الزمان

والمكان ، وتناسب مركزك فى الهيئة الاجتماعية . نعم ، قد يحول الفقر دون مجاراتك أهل أفقك في مذاهب التزيى والبروز للناس فى المظهر المناسب ، ولكن اللبق يهيء لنفسه بالتدريج ثيابا تبيح له ، إذا ارتداها ، البروز فى المظهر الملائم ، بالتوفيق بينها وبين مقتضيات الزمان والمكان

روى عن شاب ممن افترّ لهم ثغر السعادة ، أنه كان يعمل بمحل كبير للتجارة فقربه صاحب المحل منه ، لما لاح له من همته وأمانته واقتداره ، وهيأه بالترقية لمستقبل باهر يتناسب مع هذه الفضائل . واتفق أن توفى للرئيس شقيق عزيز عليه ، فاختار لتشييع الجنازة فريقا من مستخدميه ، فكان ذلك المستخدم المقرب فى مقدمتهم بالطبع

وكانت السماء يومئذ صافية الأديم ، والنسيم عليلا، فحدث العامل وسوأسه أن يغتنمها فرصة لقضاء بقية النهار بالضاحية مع رفقة له في استنشاق النسيم ، وحبب اليه ذلك الوسواس أن لا يبدل من ثياب العمل بثياب الحداد المفروض لبسها على المشيعين ، ضنا بالوقت أن يضيع عبثا فى رعاية بعض التقاليد .

ولقد أطاع شيطان الهوى ، فكانت العاقبة أن انهار صرح آماله فى مستقبله . لأن صاحب المحل التجاري الذى ساءه هذا المسلك من رجل وضع فيه كل ثقته ، جرّده من هذه الثقة ومنع

عنه رعايته وتعقبه بالمناوأة والاضطهاد ، وأمعن فى ذلك إمعاناً لم
ير المسكين بدأ معه من التنحى عن مركزه الذى كان فيه صاحب
المرتبة السامية على زملائه

ولقد أتيح له الاستخدام فيما بعد ، بمحلّ تجارى آخر .
ولكنه كان قد اعتاد الشذوذ عن مقتضى الحال فى أمر الثياب ،
فقضى بقية حياته عاملا صغيراً ، لا همّ له من الدنيا سوى كسب
ما يسد به الرمق

تجلى لك مما تقدم أهمية عناية المرء بالتوفيق بين ثيابه وبين
سنه ومركزه فى الاجتماع . فلا يحمل ثياب الفتيان إذا كان
شيخاً هرماً ، ولا أسمال الصعاليك إذا كان موسراً طويل الذيل ،
والعكس بالعكس

ويرى (پول آدم) وجوب الملابسة فى هيئة المرء ، بين
ملامح وجهه وبينها . فضئيل الوجه أو مستديره ، خليق به أن
يرخي لحيته ، ليخفى بها ضؤولته أو يعطيه شيئاً من الشكل
البيضاوى . وبالعكس ضخم الرأس بيضاوى الوجه

ومن الناس من يبلغ من دمامة الخلقة حداً يرتد الطرف
عنده استقباحا . فلو أنه عمد إلى التوفيق بين الأجزاء المتنافرة
من خلقته بتوخي الطريقة المتقدمة ، لتوصل إلى محو كثير من
عيوبه الخلقية ، ولم تعد الأبصار تنبو عن النظر اليه

ويجب فضلا عما تقدم، ألا تكون هيئة الجسم، في حركته وسكونه وسائر أوضاعه، ، متأثرة بعوامل الحياء أو الكبرياء، ولا ببواعث النزق والمهاترة

فقد قال (بواسون دولاريفيير): « ينبغي، إذا برزت للناس، ألا يكون في هيئتك ما ينافي الإعتقاد بأنك تحترم نفسك وأن الغير يوقرك. ولا تصدم بقبح مرآك وزراية شكلك، ذوقه ومذهبه. فأذا لم تأنس هـذه الفضيلة فيك، فتنشط لتحصيلها وزاولها حتى تصبح ديدنا لك. فأنها من أفضل العدد لاستزادة الأصدقاء، واستمالة العاملين النافعين منهم اليك. واعلم أنك إذا عملت بمبدأ ـ عامل غيرك بما تود أن يعاملك الغير به ـ فقد جذبت تلك الخصلة من ناصيتها، وضممتها إلى ما أنت متصف به من المحامد. ولتكن حركاتك وسكناتك خالية من أثر التكلف وتقييد الحرية. فأن سواد الناس يلتمسون هـذا الخلق فيك، ويرتبون عليه حبهم لك. وكن جادّا في قولك، غير مازح ولا ماجن، لأن الجدّ يحول الالتفات اليك ويكسب كلامك حلية الثقة

« وإذا عرض لك أن تحي أحداً فحيه مصافحة، واجعل في ذلك من الأقبال والاهتمام ما يدل على صدقك وصراحتك. لأن المصافحة في استرخاء ولين، تدل على تردد في الأخلاص، وعلى

أن فى الودّ خبا . فأذا لم تكن قد ألفت المصافحة على هذا المثال ، فعالجها حتى تصير ديدنا لك ، وليس فى هذه المعاناة كبير عناء لك . على أن الواجب أن تقترن المصافحة بنظرة ثاقبة في وجه من تصافحه ،لتلفته بها إلى ما فى تحيتك من آيات الأخلاص والصدق.

«وإذا جلت مع أحد في حديث ، فاجعل الجد والحزم رائدك تسترع سمعه ،فيقبل عليك بكله . وإذا عرض لك أن تسأله حاجة، فكن فيما تبسطه اليه منها محتفظا بكرامتك ، وموجها اليه على الدوام نظرك حتى لا ينحرف عنك ، فأن وقوع العين على العين فى استنجاز الحاجات ، أدعى إلى قضائها على الوجه الذى تتمناه .

« وفى إدامة النظر اليه تعجيز له عن انتحال المعاذير للتنصل من تحقيق مرادك »

وصدق النظر شاهد على استقامة النفس وحسن القصد ، وعامل من أقوى عوامل النجاح . فهو إذاً من الشيم التى يبعد أن يتصف بها المستكينون إلى الحياء ، الذين يؤوبون من مساعيهم فى الحياة بالفشل والخسار . لأن الحياء انقباض يستر ما النفس ممتلئة به من الزهو والغرور . وهو العقبة الكؤود في سبيل الطامحين إلى الظفر بمرادهم في الحياة

أما التواضع فليس من المحامد التى يخلق بطالب الفوز أن يتصف بها أبداً ، متي نزل في معترك الحياة . إذ قلما يكون منشؤه

الصدق والصراحة . وإنما التواضع صورة من الصور العديدة لتكلف الأدب ، وستار يسدله العاجزون دونهم ليخفوا عن الناس عجزهم ، حتى لا يضطروا إلى الاعتراف به على ملأ من الناس

وإذا كان الحياء من الصفات الفطرية في نفس صاحبه ، فهو حقيق بالأسف عليه والرحمة به ، لأن النجاح برق لا يبصر بارقته إلا العارف بأسرار المزاحمة في سوق الحياة . ويكون بالأسف والرحمة أحق ، إذا اقترن الحياء فيه بعيب يضاعف ضرره ، ألا وهو الغشم والاحتطاب

وكفى بهذا العيب ضررا ، أنه إذا عنت لصاحبه حاجة عند أحد ، عجز عن إقناعه بضرورة التعجيل بقضائها ، أو عاد من جهاده في هذا السبيل بالإخفاق ، لنقص في الأدلة التي اعتمد عليها يدع السامع في ريب من موضوعها ، وخلل يصدف به عن مساعدة ذلك الغاشم المحتطب

ومن موانع النجاح ، باطل الادعاء الذى هو والشعوذة سواء في نظر العقلاء . فأن الادعاء الباطل يجلب الى صاحبه كراهة الناس ومقتهم ، ويطمس أثر الفضائل المتوافرة فيه ، فيبعد أن يصير يوماً ما ، من أرباب الجرأة والأقدام . ولا جرم ، فأن الشعوذة تسلب صاحبها الوقار المتفق على اعتباره من أخص

وسائل الفوز في هذه الحياة

واذكر أن إرسال الكلام مطبوعا بطابع الحكم الجازم، مع رفع الصوت به، صارف عنك التفات السامع الذى لا يحب من محدثه أن يتحكم فيه، فيفرض عليه الأخذ برأيه من غير تمحيص ولا استدلال، ولا أن يرفع صوته فيهوّش عليه في تفهم المراد من قوله. فأذا انفسح أمامك مجال القول، فسر في التعبير عن مرادك السير الوئيد، ملتزما فيه جانب الصراحة والدقة وعجملا اللفظ بثوب قشيب من الطلاوة والرقة. وجانب ما استطعت عاميّ اللفظ ودخيله، ووحشيّ التركيب وغريبه، مالم يكن في إيرادك بعض الشيء من ذلك، ما يصلح حديثك ويكسوه ثوب البهجة والحسن

وإذا استطعت وأنت مستهل حديثك، أن تهيء السامع للالتفات الى ما ستلقيه عليه من القول، فقد أحطت بفن واسع من فنون الكلام يجب على طالب النجاح أن يأخذ بأطرافه

وإذا تجمل المرء فى زيه، بما لا يتعدى الحشمة ولا ينافي الأدب، أى أنه إذا سوى شعر رأسه وشاربيه ولحيته، ونظف يديه وأظافيره وحذاءه، وطهر ثيابه وحملها على أوفق الأنماط للنسق المألوف فى الوقت، فقد فتح لنفسه الأبواب الموصدة وقوبل بالاكرام في كل مكان

ونحن إذا نبهنا على ضرورة الأخذ فى اللباس، بالنظام المحمود والنسق الجميل، لا نصوّب ما يسمونه «التأنق» فى اللبس، بل ندعو الى القيام بواجب نحو أنفسنا ومن تربطنا بهم بعض الصلات. إذ قبيح بالمرء، ولو سقطت الكلفة بينه وبين هؤلاء، أن يقدم يده مثلا لمصافحتهم ملوثة بالأدناس أو محشوة الأظافير بالقاذورات. فكم من وداد انفصمت عراه بعد وثوق لأسباب من هذا القبيل، وكان الأمل معقوداً ببقائه، لما يترتب عليه من بقاء أبواب الفوز مفتوحة على الدوام

وجانب ما استطعت إرسال الشعر الى الكتفين، أو تشعيثه وهو مرسل. لأن الشعر المرسل، فضلا عن منافاته لهندام الرجال، يتطلب دوام العناية به كيلا يتصل القذر منه بالثياب على أثر احتكاكه بها

وإذا أردت التوفيق للنجاح فى عملك، فلا تغفل هذه المواعظ ولا تهمل العناية بهندامك. فلا تطلق العنان للحيتك حتى تبلغ من الطول حدّاً يضطرك الى إنفاق المال والوقت فى مواساتها، ويعرضك لاحتقار الناس وسخريتهم

وبدهيّ أن الأعراض التى تنتاب أفواه الناس تختلف فى تأثيرها المفسد للاسنان، والمانع لها عن أداء وظيفتها. فلا عجب إذاً أن يعاني الكثيرون منهم إصلاحها حتى تقوم بمضغ الأطعمة

تسهيلا للهضم ، ووقاية للجسم من شرور الأمراض . وإنما ينبغى مع هذا أن تنصرف العناية كلها إلى أن لا يكون بين الأسنان ما يحول دون إيقاف السامع على مراد المتكلم . فأن خلل اللفظ إذا نشأ من فساد فى الأسنان ، أعجز المتكلم عن إلباس كلامه ثوبا يسترعى النظر ، وهو ما يسأمه السامع . فأذا كان يملك لك نفعاً ضنّ به عليك وعدت من لدنه بخيبة الأمل وإخفاق المسعي

وفى وسع الناس جميعاً، أن يجيدوا خط الكتابة إجادة لا تخرج بها عن مقتضى القواعد الموضوعة لها . لذا ينبغي أن يدركوا أن المهمّ فى الخط ليس التأنق فى تنسيقه ، حتى يكون كسلاسل الذهب كما يقولون ، بل وضوح حروفه وخلوّه من التراكيب المتشابكة المتداخلة ، والأوضاع المتراكبة المتساندة التى تحمل القارىء العناء فى حل طلسمه . لأنه إذا تكلف هذه المؤونة مضطرا ، ثم تبين له أن ما أنفق من الوقت والتعب في استكناهه لم يكن على جانب ما من الأهمية ، ألقى بالمكتوب فى سلة الأوراق المهملة ، وحقد كل الحقد على كاتبها . فعليك إذاً بأيضاح خطك إذا كان يهمك ، فيما تكتب ، أن تزجى بمرادك إلى ذهن القارىء أو تحمله على الاهتمام به

واعلم أن لصحة البدن أثرا صالحا فى إصابة النجاح المنشود ، فضلا عن أنها تبدي أعضاء الجسم فى أحسن تقويم . نعم إن

الصحة نعمة لم يتساو الناس فى الفوز بها أجمعين ، وأن المحرومين منها لا يستطيعون اقتناءها ولو بالثمن الفادح . ولكن لا يعزب عن الفهم أنه إذا تعذر اشتراء الصحة بالنقدين الكريمين ، ففى الوسع إدراك الأمتيه منها بالاعتدال فى المطعم والمشرب والملبس . لأن الافراط داع إلى اختلال نظام الأعضاء ، والاختلال داع إلى الاصابة بالأمراض التى لا يستقيم معها حال البدن .

ومن أضرّ الاشياء بالصحة السهر الطويل ، ولو فى مزاولة الأعمال . فأن العمل فى البكرة أوفر ثمرة وأجدى نفعا منه فى العشية ، حيث البدن فى حاجة إلى الراحة من عناء النهار . فعليك متى تناولت ما يطيب لك من الطعام وتسامرت ساعة مع أهلك ، أن تعمد إلى النوم . فأنك إذا أصلحت بالنوم بدنك وجددت قوتك ، نهضت منه متنشطاً للعمل بجدّ ومثابرة لا يتوافران لو زاولته قبل نومك

ومن ألزم شروط حفظ الصحة القناعة ، أى الاعتدال فى مطالب النفس . قال كارنجى : « ليكن فيك من الكياسة ما يكفى لصدك عن غشيان الحانات » وقال : « لا يترتب على العمل الذى يبت فيه بحانة أو قهوة نجاح ما فى الحياة » ، وقال بايو : « إن أول أركان النجاح أن يكون المرء كما قال بعضهم ـ حيوانا رضيّ النفس ـ فأن رضي النفس يجعل الجسم كالآلة الموسيقية ضبطت أوتارها

على مقتضى الأيقاع، فهو إما أن يضبط حركاته وسكناته، ويوقيها الشذوذ والتباين والتنافر ، فيستجمع الجثمان كل قواه وتنشط الأرادة ويتنبه الالتفات ، وإما أن تفتر فيه هذه القوى ، فتغشاه الأمراض وتضعف الأرادة . وإنما تجزى الطبيعة العامل المجدّ عمله بارتياح النفس ، الارتياح الذى يبث فيها السرور الدائم والاغتباط المستمر »

إلى أن قال : « . . والصحة رقم إذا وضعته إلى يسار أصفار الحياة دلّ على قيمتها »

ولسنا بعد هـذا بحاجة إلى القول بأن المرء فى غنى عن الجمال ، إذا كان من جودة الصحة بحيث تبدو عليه آيات النضارة والبشر . فإنه يجد فى هـذه السمات المكتسبة خير معوّض عن جمال الفطرة ، بل خير ذريعة للوصول إلي أقصى غايات النجاح فى الحياة



١٠

سعة الصدر والأناة

سعة الصدر ارتياح فى النفس إلى لقاء الحوادث بجنان ثبت وبال ناعم ، وخاطر مطمئن ، ورضى بالطوارىء ، طيبة كانت أو رديئة . وهي أثر فى الخلق مستمد من قوة الأمل وصدق الأيمان ، بل شيمة تجعل صاحبها مغتبطاً بما يتقلب فيه من حاله ، راضياً بها على علاتها

وكثيراً ما يلتبس على الناس فهم المراد من سعة الصدر ، فيخلطون بينها وبين ما يعروهم من هزة الفرح وانشراح الصدر مع بعد بون المقارنة ، بل استحالتها بين شعور النفس فى الحالة الأولى وبينه فى الثانية

فأن هزة الفرح وانشراح الصدر وخفة الروح ، أحوال عارضية لا تلبث أن تزول بزوال أسبابها . أما سعة الصدر التى تستتبع سكون النفس وطمأنينتها ورضاها ، فصفة قائمة بنا وخلة ملابسة لنا ، تبدو آثارها علينا فى تطورات حياتنا ، خيرها وشرها . وهي التى تمهد لنا النهوض بأعباء الآلام عن صبر

ورضى ، فلا نتهوز فى تقدير وقعها على النفس . وتجعلنا نحس بلذة السعادة نقية من شوائب الوهم والخوف ، فلا تنغص علينا عيشنا فنجزع ، ويكون جزعنا سبب شقائنا

ومن أمثال العوام المؤدية للمراد من سعة الصدر قولهم : « فلان يقابل القضا بالرضى » . فسعة الصدر ليست فى هـذه الحالة إلا السكون الذى يتيح للمرء التسلط بالقهر على نزعات النفس ووثباتها ، عند نزول الكوارث

وكثيراً ما يتسلط الوهم على الأنسان وتستعبده الوساوس ، فيجسم الحادث النازل به ، وإن هان . لأنه ، بما تحكم فى نفسه من الوهم وساور عقيدته من الوساوس ، يجعل هذا الحادث همه الذى لا يصرفه عنه صارف . وما أضر الوهم والوسواس بالنفس ، إذا تحكما فيها بسلطانهما الجائر !

قال الحكيم (سنيكه) : « يفارق الألم النفس إذا لم يجسمه الوهم . ولن يكون الألم شديداً إلا حيث يشتد الوهم ويفعل في النفس فعله الرديء . وإنما يشقي المرء بما يسوقه من الشقاء إلى نفسه بدافع الوهم العالق بفؤاده »

ولو كان المنكوب بكارثة ممن ألفوا الأناءة وراضوا أنفسهم على السكينة وترووا فى حقيقة أمرهم ، لكفى فى إقناعه بخطأه أن يساق اليه القياس المنطقي الآتى : « الألم المسبب عن

الكارثة ألم واحد ، والألم المسبب عن الكدر منها ألم ثان ، فمن الحمق أن تحمل نفسك عبء ألمين إذا كنت عاجزاً عن النهوض بأحدهما » .

فإذا أخذ المرء بزمام نفسه وسلك بها سبيل التبصر والتروّى فأنه يتلقى الطوارىء بالسكينة والرضى والثبات ، ويجعل تأثيرها فيه أقل بكثير مما كان يتوقعه . فأن الذى يحمل بين جنبيه نفسا مطمئنة راضية وضميراً مرتاحا ، تنقاد له الآمال المستعصية وتزول من طريقة العقبات والمعاثر

ومن المغالط أن تذهب مذهب القائلين بأن المزايا الموفورة فى السعداء مستمدة من سعادة جدّهم ويمن طالعهم ، وأن لا فضل لهم فى توافرها فيهم . فأن من الناس جما غفيراً اشتهروا بالاحتفاظ بالسكينة وسعة الصدر ، كلما كثرت لهم الحوادث ، عن نابها ، أو اعترضت لهم العقبات فى الطريق ، وأنهم كانوا يتلقونها بالهشاشة ويعملون لتذليلها ، فلم يلبثوا أن ظفروا بالمراد

ولا عجب فأن من سجايا المطمئنة نفوسهم الرحبة صدورهم ، الاعتقاد بأن الشرّ يعقبه الخير وأن الشدة يتلوها الفرج . والذين حنكتهم التجارب منهم وعجمت عودهم الحوادث ، لا يزالون يذكرون أنه ما نزلت بهم كارثة إلا وكان الخير فى أعقابها ، وأنهم كانوا فى صباحهم يحمدون انفراج الأزمة التى اشتدت بهم

فى أمسهم الدابر .

وأكثر ما تكون سعة الصدر لازمة للمرء فى معاملاته مع الناس ، فأنها تصده عما يبدر من نزعات الغيظ ونزوات الغضب التى تنكل بصاحبها ، إذا تحولت من عاطفة نفسية إلى حركة فعلية .

وكل عمل ينجزه صاحبه ، وهو تحت سلطان الغضب والتهور ، لا يأتى بفائدة للمستقبل . وعكسه العمل الذى يباشره صاحبه مهيمنا على نزعات نفسه ومالكا قياد غضبه ، فأنه يكون من الأعمال المجدية . ومن خلال التغلب على نزعاته أنه لا يتجهم للحوادث المفاجئة ، بل يتلقاها بصدر رحيب ووجه باش ، ويتوسل بها إلى تعويض ما أصابه من خسارة . وفى المثل العامي السالف من الحكمة البالغة ، ما يرشد صادق الأيمان إلى خير العمل . فلقد أيدت التجارب أن الحادثة كثيراً ما تجيء وعلى خففها ظرف ، لولاها لما توافر وأفاد بدرء خطر أو تلطيف قضاء أو إيجاد ظروف أخر تحقق آمال المجد ذى الصدر الرحيب

اعتزم أحدهم السفر يوماً إلى بلدة قريبة ، لينجز عملا كان يرجو من ورائه ربحا جزيلا ، فقصد إلى محطة السكة الحديدية . وإنه لينحث السير وإذا بصديق له قد استوقفه وانحدر به فى محادثة طويلة نشأ عن المضي فيها أن أزف ميعاد تحرك القطار ، وقبل أن

تنتهى . وما انتهت حتى جدّ صاحبنا في المسير نحو المحطة ، على أمل أن يدرك القطار ، فلم يدركه . فعاد أدراجه صاخباً ساخطاً لاعناً تلك المقابلة التى ضيعت عليه ربحاً عظيما وسعادة وافرة .

ولقد أصابه من إخفاقه هذا غمّ شديد ، أمسك بسببه عن الطعام والشراب ، طول يومه . فلما أرخى الليل سداله ، وكان قد بلغ الكرب به مبلغا عظيما ، اشترى صحيفة ليسري الغمّ عن قلبه بتلاوتها . فقرأ ما علم منه أن القطار الذى فاته الركوب فيه صدم قطاراً آخر ، فمن لم يمت من ركابه أصيب بجرح خطير . فحمد الله ، آنئذ ، وأثنى عليه إذ ساق اليه ذلك الصديق الذى أخطأ القطار ليستقصي حديثه ، ثم كفّ عن حزنه ووجده

ولو كان هـذا الرجل من أصحاب العقل الراجح والنظر البعيد ، لعاهد نفسه منذ أخلف القطار ، على طرد الغموم من حوله كلما تحفزت للوثبة عليه ، وقابل القضاء بالرضى ، معتقداً أن الحذر لايغنى عن القدر ، وأن الفرج لايكون إلا بعد الشدة

قال (هنرى بون) : « تطلب سعة الصدر من صاحبها الرضى بالحياة على علاتها ، ولقاءها بالمشاشة في الشدة والرخاء . وهو ما لا يتوافر إلا بصدق العزيمة والروية ، لأن المرء فى حاجة إلى الاستعداد بعزيمته ورويته لمدافعة الحوادث المخالفة لمراده . واعتبر بنفسك كيف تعتزم الخروج من دارك لقضاء

حاجة هامة ، فيسوق الحظ العاثر لزيارتك ، ساعة تحركك ، من لا يحسب للذوق حسابا ، ولا يعرف شيئاً من آداب المعاشرة والسلوك ، فيطيل الجلوس عندك ويسبب ضياع الفائدة التي كنت ترجوها بمزايلتك الدار ، ساعة حضوره اليك . وقد تغادر دارك ، فما هي إلا خطوة أو خطوتان إلا وصيب من السماء فيه رعد وبرق ، يضطرك أن تنقلب في الحال اليها . وما أكثر ما تأتي معاندات الزمن بما هو أشد من هذا ضرراً ، كأن تطمح الى منصب ترى أنك خير أهل للقيام بأعبائه ، فاذا به قد أسند الى من تعتقد أنه دونك علماً وكفاءة » الخ .

ولا مفر للمرء ، في مثل هذه الأحوال ، من الاعتماد على احدى خصلتين ، خصلة الأغبياء المتهورين الذين يضجون ويصخبون ، ويرغون ويزبدون ، ويقومون ويقعدون ، ويتهمون الناس والأقدار بأنها علة فشلهم وشقائهم ، أو خصلة أصحاب الأناة والرصانة الذين يرون في العويل والصخب ما لا يلتئم مع الذوق ، ويعتقدون أن التهور ضرب من الجنون ، فيقابلون القضا بالرضى ، ويتحملون مضض فشلهم بالصبر والثبات ، ويكتمون عن الناس عجزهم عن مغالبة القضاء في دفع البلاء .

وإذا كانت سعة الصدر تكسب صاحبها القلوب المنحرفة ، فلا عجب إذا اقترنت جهوده بالتوفيق . فقد درج الناس على

مصافاة من يلقونهم بالبشر والهشاشة ويعاملونهم بالمعروف، ومناوأة الذين يتجهمون لهم الذين تدل أطوارهم على أن الاختلاط بهم لا يخلو من المزالق والعثرات .

وبدهي أنك إذا سألت أحداً قضاء حاجة أو حل معضلة، وكان ممن يهشون للقائك ويبشون فى وجهك ويأخذون بالعرف فى معاملتك، لا تلبث أن ترى حاجتك مقضية عنده وفق مصلحتك . فسعة الصدر مفتاح المغلق من المقاصد ومقرب البعيد من الغايات، وممهد الوعر من العقبات .

قال الحكيم (مونتني) : « من آيات الحكمة والعقل طلاقة الوجه وانشراح الصدر وسهولة الجانب، وهي خلال يستعبد صاحبها القلوب ويجتذب الأفئدة » .

وإياك والخلط بين سعة الصدر والابتهاج الذى يفضى غالباً إلى المطايبة بالكلام، فالمزح الثقيل . فأن الابتهاج الذى هذه عاقبته، عقبة كؤود فى سبيل السالكين إلى النجاح يجب عليهم أن يجانبوها . والمزح، وإن قام على حسن النية، يأوله السامع بما يجر إلى الجدال فالخصام فالافتراق . وهو ما اتفق للمصور (ايزابى) فى حادثة نثبتها هنا بنصها :

« كان بين هذا المصور والموسيقى (جريترى) مطايبة بالكلام منزهة عن سوء القصد . وكان لجريترى بلبل صداح

يحبه حباً جماً لحسن صدحه ، ويذكره دائماً فى حديثه . ولقد دعي يوماً إلى تناول الطعام على مائدة صديقه ؛ فبيناهما يأكلان إذ قال له هذا : «أقدم اليك أيها الصديق طعاماً أمرت بطهيه على ذمتك فكل ثم قل كيف وجدته . فأخذ الموسيقيّ بعض الشيء ولاكه للتذوّق ، ثم ازدرده قائلا لضائفه ـ نعم الطعام هـذا ، فأنى ما أكلت فى حياتى أطيب منه قط ـ فقهقه المصور ضحكا وقال إنما الطعام الذى لاكه هو لحم بلبله المحبوب . فامتقع وجه الموسيقي وأخذه شيء من الأغماء ، لما تولاه من الحزن واليأس . ثم انصرف من فوره ، بدون أن تنبس شفته بكلمة ، وقاطعه إلى أن مات » .

نعم إن جريترى بلغ من اليأس والحزن الى حد التهور . ولكن لا يسع المنصف إلا الحكم بأن المصور تجاوز حد المزح اللائق والمطايبة الجائزة ، وأنه قد أساء الى صديقه حين صدمه فى ذوقه وصادره فى ميوله ، بطهيه له من الطير الذى شغف به حباً ، طعاماً ما كان يمد يده اليه لو عرف أنه متخذ منه

وسعة الصدر لا تنافي الروية والعقل ، بل هي عماد لهما وهما عماد لها . فأنه لا غنى ، فى الانتفاع بسعة الصدر لتحقيق المقاصد المختلفة ، عن إعمال الروية وتحكيم العقل ، كما لا غنى فى التعقل والتروى عن سعة الصدر واطمئنان النفس . وأى امرىء لا يحمل

العقل والروية والسكون إماماً له في عمله ، لن يتاح له استنباط النتائج الكبرى من المقدمات الصغرى ، ولا إدراك الغايات البعيدة من أقرب الطرق وآمنها ، بل لا يهتدى الى الأساليب التى تكفل له الفوز في مغالبة الشقاء ومعاكسة الزمان ، فيقضى حياته كما قضاها الصائد الذى ورد فى بعض حكم الألمان أنه كان، عند مطلع الفجر ، يبرح داره للصيد فلا يعود اليها إلا فى خلال الظلمة خاوي الوفاض ، بينما الصيادون غيره كانوا ينقلبون الى أهلهم فرحين بكثرة ما صادوا

فقد كان ذلك الرجل يرى الأرانب البرية والوعول والأيائل تدنو منه كثيرا ، فلا يعبأ بها ولا يتكلف قنصها ، تاركا لهم جزية التنافس فى مطاردتها . ذلك لأنه كان يطمع فى أيل أبيض من نوع نادر ، ذكر بعض شيوخ الجهة أنهم رأوه فى غسق الليل ، يحوم حول مستنقع فى وسط الغابة ، ثم يشرد متى تراءت له صورته فى الماء ، مختفياً فى الآجام . وكان صائدنا يرى أنه مما لا يتفق مع مكانته ، تضييع الوقت فى صيد الحيوانات المألوفة ، فعاهد نفسه على صرف جهوده كلها لصيد ذلك الأيل الأبيض النادر المثال

وكانت الفصول والسنوات تنقضى متعاقبة ، وصائدنا يرصد الحيوان الذى صور له الوهم ، بناء على الرواية التى سمعها ، أنه

يتردد كل ليلة على المستنقع ، معتزما أن لا يصيد غيره ، كي يتم له التفوّق والامتياز على غيره من الصيادين

وما كان وقوفه بمرصد من متردّد الأيل الأبيض ليجدي نفعاً . لأنه كان في آخر كل نهار ، يعود إلى داره مردوداً بالخيبة ومخلفاً ما طلب . ومرّت به على هذه الحال سنوات خارت فيهما عزيمته وضعفت قوته ، لما غشيه من السأم واليأس والمرض ، فبطأت به الحركة وتخلفت همته عن المثابرة على طلب المراد . وكثيراً ما كان يغلب النعاس عليه ، وهو رابض في مرصده مرور الأيل الأبيض ، فتجري الأيائل حوله وهو لا يدري .

على أنه أبصر ذات يوم أيلا يكاد لونه يشبه الأيل المنشود . فصوّب بندقيته اليه ، ثم لم يلبث أن حولها عنه ، حينما تبين ما يتخلل جنبه الأبيض من لون أصهب ، جعله يوقن أن هذا لم يكن الأيل الذي أمضى في طلبه صفوة حياته .

ولقد كان ذات مساء على أهبة العودة الى بيته ، يحدوه الفشل ويشيعه الاخفاق ، فأذا به قد أبصر بأيل أصهب كالذي ترفع مراراً عن أن يصيده . وكان يلاحق هذا الايل صائد ، فلم يقطع مسافة حتى ريش بسهم وسقط أمامه مضرجا بدمه ، وسمعت في الوقت صيحة فرح تنبعث من خلال الأشجار ، فلم يعبأ بما وقع بين سمعه وبصره . وكانت الشمس آنئذ قد آذنت بالمغيب

وأخذت تجذب اليها شباكها الذهبية التي طرحتها على وجه الأرض فظهر لصيادنا الغبي أن الأيل المصروع ناصع البياض ، وأن أشعة الشمس في الأصيل هي التي أكسبته تلك الصهبة

حدثته نفسه ، بعد هـذا الفشل ، بالعودة الى المكان الذى صيد الأيل الأبيض فيه ، رجاء أن يسوق القدر اليه أيلا مثله يكافىء به صبره الطويل . ولـكنه لم ير أيلا قط ، فمات نادما على أنه لم يقنع بما كان القدر يسوقه اليه من الصيد ، ريثما يعن له الأيل الأبيض فيقضي بصيده أربه .

فى هذه الحكاية الموضوعة ، حكمة خليق بمن لم يتحلوا بفضيلة الاعتدال التمسك بأهدابها ، لما فيها من الارشاد الى أن التطرف فى المطالب والتهوّر فى المطامع باعثان على احتقار الأسباب الصغيرة ، ولو أدت الى الظفر بالمراد ، إيثارا للسعادة الكبرى التى صوّرها الوهم لأذهانهم ، تصويراً شوهت المبالغة فيـه وجه الحقيقة ، بما جعلهم ينكرونها إذا تجلت لهم وسطعت سطوع الشمس فى كبد السماء

ومن مزايا سعة الخلق لمن رام النجاح بكفاءته ، أنه لا يضايق غيره بالشكوى من العقبات التى تعترض له . فأذا شكا لضيق فى خلقه ، فقد حمل سامعه وقراً كان جديرا به أن يلقيه على كتفيه . ولا جرم ، فأنه إذا تكلل بالنجاح سعيه الذى كان يأسه منه في

وقت ما داعيا الى الشكوى ، لا يشرك المشكوّ اليه فى فوائده كما أشركه فى همومه

وما أقل عدد الذين يملكون عنان إرادتهم ، فلا يحملون غيرهم أعباء نتائج فشلهم . فأنك كثيراً ما ترى من يصيبهم الفشل فى أعمالهم ، يصبون جام الغضب والسخط على من لا دخل لهم فى حبوط مساعيهم . وأشدّ ما يكون ضرر هذه الخلة ، إذا وقعت من رئيس على مرؤوسه ، لأنها تفضى حتما الى الأجحاف بالحقوق . وليس من الحكمة ولا من أصالة الرأى أن يسير رئيس بالظلم بين مرؤوسيه ، فيهدم معالم نفوذه بينهم بما يحملهم عليه من انتقاده فى تصرفاته القولية والفعلية .

أما ضررها ، إذا وقعت من المرؤوس على رئيسه ، فيزداد ضعافاً مضاعفة . ذلك لأنه ، بما يثيره من غضب الرؤساء عليه ويحجبه من رضاهم عنه ، يحول دون تقدمه وفلاحه . فيعيش طول عمره متبرماً ساخطاً ، مع علمه بأن طاعة الرؤساء فرض لا مفرّ منه ، وأنه لو أقر لهم بشىء من الطاعة لدفع الشقاء عن نفسه

ومن الخصال ما هو أجزل نفعاً من خصلة الرضى وسعة الصدر ، ولكن ليس بينها ما هو أعم نفعاً لمن رام الفوز فى الحياة وطمع في إصابة الثروة . فأن سعة الصدر كفيلة بتحويل الحوادث

الى وجهة ترضى النفس وتوفر لها الراحة ، وبالحكم على الأشياء والاشخاص حكما خاليا من أثر التحيز

وإنما سعة الصدر سرّ من أسرار طمأنينة النفس الطمأنينة االلازمة فى الأعمال كافة ، وشهادة لا محاباة فيها بصدق العزيمة وثبات الأرادة ، وغيرهما من الخلال التي توسع نطاق الفكر وتوثق عرى الاتفاق الذى هو أحد ضروب السعادة ، وصور من صورها الجذابة الخلابة



١١

الكياسة

الكياسة من ألزم الفضائل لتحصيل السعادة وإصابة المقاصد الحسنى فى الحياة ، لما تنطوى عليه من معنى الأدب فى فطنة والظرف فى سكون وروية

حقاً ، إن الذين قبضوا على صولجان السعادة ، لم يتصفوا جميعاً بالكياسة . بل أن فيهم من ساروا على نقيضها ، فلم يكن هذا المسلك بعائق لهم عن البلوغ إلى الغاية التى سموا اليها

على أنه لا وجه للمقارنة بين الوسائط التى اتخذها السعداء ، فى زمن مضى ، لاقتناص طائر السعادة ، وكلها مبنيّ على الشدة والجبروت ، وبين ما يتخذ من الوسائل الآن لذلك وفيه الشيء الكثير من الاحتياط والعناية والرفق

ثم إن الموسرين المتغطرسين الذين يصح الاحتجاج بهم على اشتراط الكياسة للفوز بالمراد ، أفراد يعدّون على الأصابع . وليس من دليل على أن أهل أفقهم فى زمنهم اعترفوا لهم بفضل أو شادوا بذكر ، على سبيل الأجلال والأعجاب . على أنهم إذا

حادوا أحياناً عن الصراط السويّ في معاملاتهم ، فليس ذا الخلق فطروا عليه . كلا ! وما كان لمثلهم ، وقد ذاقوا صاب الذلّ وكابدوا الأهوال في طريقهم وامتثلوا الأوامر صاغرين ، أن يتهموا بذلك . وكيف يجوز لمثل الرجل الجليل القدر الذى بدأ عمله في الحياة ، ببيع الصحف السيارة فى الطرقات العامة ، أن يكون مع معاشريه غير سلس القياد لين العريكة ؟ بل كيف لمثل كارنيجى ، ذلك الآخذ من الثروة بالحظ الأوفى ، أن يكون على شيء ما من جفاء السجية وعسر الأخلاق ، وهو الذى كان يأخذ بمقبض المكنسة صبح كل يوم ، لينظف من الأقذار محل التجارة الذى كان عاملا فيه ؟

إنه منذ أفاض الحظ مواهبه على أولئك المصطفوين ، تقدم النوع الانسانى فى مضمار الآداب النفسية وأصبحت الكياسة ديدن الذين ساروا أرهق سير فى طلب السعادة ، لم تريثهم عنه عقبات الطريق .

والكياسة مزيج من السجايا النافعه ، كدماثة الخلق ورقة الحاشية وسكون النفس فى ذكاء وقاد وفطنة ناشطة وتأهب محكم ، وأخذ بالأحوط فى اقتناص الفرص بأسلس الشباك وأرفقها بالقنيصة . هذا هو حدّ الكياسة . وإن شئت فقل هي شمائل لطيفة ، إذا اجتمعت في المرء أكسبته القرب من الناس

ووطأت له من أفئدتهم وأحكمت الروابط بينه وبينهم .
فالكياسة ليست إذاً شيمة مستقلة أو فضيلة قائمة بذاتها ، وإنما هي مجموعة من الغرائز الطيبة والأخلاق السمحة ، يتوقف شعور المرء بسعادته على حسن أثرها فى معاملاته . أو هي فن من فنون تهذيب الأخلاق يدعو إلى الاجادة فى كل شيء : كلطف التنصل عند مخالفة الرأى ، والأخذ في المحاجة أخذاً رفيقاً يحمل مناظرك على الاعتقاد بأنك على رأيه ، ولو لم تكن كذلك ، فتكسب محبته وتجذب اليك ميله.

وللكياسة ضروب شتى تتعذر الاحاطة بها في هذا المقام . لذا نقتصر منها هنا على ذكر ما إذا المرء حذا مثاله ، حل الفرح منه محل الترح وتبدل يأسه رجاء وظفر بالسعادة والهناء .

إذا رأيت إنسانا يهرف بما لا يعرف أو يفترى على الله الكذب بلا حياء ولا وجل ، وكنت كيساً لبقاً ، أمكنك أن تزجي اليه بما تعتقده من تعمده الكذب ، من غير أن تجبهه بمثل قولك له : « أنت كذاب أشر » . فأن جبهك إياه بهذا القول ، لا ينهض دليلا على صحة تكذيبك ولا على علو كعبك فى الأدب .

وإذا حاول أحدهم أن يخدعك ، وأحببت أن تلقى فى وهمه

علمك بما يطويه ضميره من خبث النية نحوك ، فحسبك أن تقول له : « يبدو لى من كلامك أن الأمر كيت وكيت » ، أو « يؤخذ من قولك ما يحمل على الظن بأن المقصود هو كذا وكذا » أو « الصواب ماقلت ، ولكن يذهب الناس إلى كيت وكيت » أو « يعنّ لى أن الصواب غير ما أسمع فلعل الذاكرة قد خانتك » الخ الصيغ الأدبية التي يمكن إفراغ التكذيب فى قالبها ، بحيث لا يؤذى ذلك الذى حاول خدعك بزخرف كذبه وإيهامه . وبدهيّ أنه إذا كان من أهل الاستقامة ، أسرع الفيئة إلى الحق ، فرجع عن مماراتك وأخذ باحترامك

ومن المقاصد التى يخلق بالكيس أن يسعى اليها ، العناية بمشاورة الجار والصاحب ، فيما يعنّ من الأعمال التي يخشى أن يدركهما الضرر بسببها . لأن الكياسة إذا صارت ملكة فى النفس ، أثرت فى عاداتها واستعداداتها تأثيراً يفيدها الحب والاحترام من الناس أجمعين .

ومما يذكر فى هذا السياق ، أن شاباً مهذباً كان يجوس خلال دور المصارف والتجارة ، للبحث عن عمل يشتغل به . واتفق أن انهمر المطر على غير انتظار كالسيل الآتيّ ، فتردد في أمره هنيهة لأنه كان لا يملك إلا ما يفى بالنفقة على طعامه . ثم رأى أن يلتجىء إلى الحافلة (مركبة الأومنيبوس) وقاية لثيابه من

التلف ، وأن ينفق في هذا السبيل بعض المال الذى احتفظ به اطعامه

وكان الناس يتزاحمون بالمناكب لاتخاذ المجالس فى الحافلة ، ومن بينهم سيدة طاعنة فى السن أدركها شيء من أذى الزحام ، لعدم احتفال المستبقين إلى المقاعد بشيخوختها وأنهم لم يؤثروها على أنفسهم ، عملا بواجب الأدب نحو الجنس الضعيف

وقد لحظ صاحبنا ما هي فيه من حرج الموقف ، فأقبل عليها وترفق بها حتى أجلسها فى مقعده بالدرجة الأولى ، والتمس لنفسه مقعداً غيره بالدرجه الثانية . ومضى بعد هذا الحادث يومان كان فى خلالهما يتردد على المصارف والمتاجر ، فى التماس عمل يعيش به . فكان كلما طرق باباً ، قيل له لا محلّ ، أو طلب منه اسمه وعنوانه ، حتى إذا عنت حاجة لاستخدامه كاتبوه فى ذلك

وفى اليوم الثالث دخل مصرفاً فى التماس وظيفة ، فأجيب بمثل ذلك الجواب ، فخرج منه واجماً كاسف البال . وفيما هو يلتزم أحد عطفي الطريق ، إذا بمركبة خاصة لم تكد تسامته حتى أطلت منها سيدة في زيّ عظيم وهيئة هيئة ، وأخذت تشير اليه بيدها إشارة استدعاء . فاتجه نحو المركبة ليستجلي الخبر ، فأذا به أمام السيدة التي عاونها بكياسته على الجلوس فى الحافلة

فأنشأت تشكر له هذا المعروف وتسأله سبب وجومه ، فأجاب بما تبينت منه بؤسه وشقاءه . ولسعد طائره ، كانت هذه السيدة والدة صاحب المصرف الذى خيب أمله . فلما وقفت على سبب وجومه ، وعدته خيراً وانطلق كل منهما في سبيله . ولم يمض يوم واحد بعد ذلك حتى استدعاه صاحب المصرف وقلده عملا عنده . ولقد ظل فى خدمته ثلاثين عاماً ، كان فى خلالها المتولى إدارة المصرف وأصبح من الموسرين . وما كان له أن يظفر بهذه السعادة لولا ما أبداه من الكياسة والنخوة ، يوم تنازل عن مقعده فى المركبة لسيدة لم يكن لها مع المتهافتين على المقاعد حول ولا حيلة

وفى حياة المرء مسالك عديدة ، إذا انطلق فيها ، استطاع أن يقتنص محبة الناس ويحوّل الى ناحيته مجرى عواطفهم ويتخذهم درعاً واقياً ، عند الحاجة ، من صدمات الزمن ونكباته .

ومما تتحقق به أمنية طالب السعادة الدقة في الوفاء بالوعد . فقد دلت حوادث كثيرة على أن إخلاف الوعد يصرف الميول عن المخلف ، ويسبب الكراهة والمقت له . ولا عجب ! فأن انتظار الوفاء ممن يعقد النية على الأخلاف يبعث على التبرم والاشمئزاز ، ويثير ثائرة الغضب . والانتظار يورث الاضفرار ، كما قيل .

أضف الى ذلك أن إخلاف الوعد دليل على أن المخلف لم

يرُض نفسه على خصال الترتيب والتدقيق فى الأعمال . فأذا كان الموعود باللقاء ممن ترجوهم لجذب منفعة أو دفع مضرة ، فاحكم بفشل سعيك عنده ، إذا أخلفت وعدك معه . وفى حوادث الحياة اليومية ، شواهد ناطقة بأن إخلاف الوعد ذنب لا يغتفر ، لمساسه بكرامة الموعود . دع أنه يعرض الواعد لتهمة الخفة والرعونة ومظنة الطيش والنزق ، فيؤثر ذلك تاثيراً رديئا في مستقبله

وأقل ما ينجم من الضرر عن إخلاف الوعد ، أن من يلحقه ضجر الانتظار ، يعاهد نفسه على رفض كل وعد لاحق من المخلف ، ولو صدق فيه . فتكون ثمرة ما غرسه من الأخلاف ، الأيذاء الى نفسه بحطّ منزلتها فى عيون الناس والأضرار بمرافقه عندهم

وما قيل فى إخلاف الوعد ، يقال مثله فى الرد على الرسائل . فأن تأجيل الرد الى غير الوقت المناسب ، يشعر بأن المؤجل لا يعنى بشخص مراسله ولا يحترمه ، ويدل على إهماله . وإذا وقع التأجيل فى شأن تجارى ، كان مقترفه حقيقاً بالعقاب ، لأن الأهمال فى التجارة يجرّ الى الخسائر الفادحة ، وربما أدى الى الأفلاس

وإرجاء الرد على الرسائل ، سواء أوقع بين الأهل أم بين الأجانب فى معاملاتهم ، يحطّ من كرامة المرجىء ، ويحوّل عنه النيات الحسنة ويدعو الى الظنة فى أدبه ويعوقه عن بلوغ قصده

ومن أوثق أركان الكياسة ، أن تربأ بنفسك عن التدخل فيما لا يعنيك والتشبه بالملحفين الذين إذا أجيبوا على سؤال ، أردفوه بغيره . لأنك بسلوكك مسلكهم ، تتهم نفسك بما يأباه الأبيّ النفس من الاندساس فى شؤون الناس . وهي خلة تجلب الى صاحبها من المقت ما هو فى غنى عنه ، لو اشتغل بشؤون نفسه عن شؤونهم . وأشدّ ما يكون هذا الاندساس ضرراً بك ، إذا وقع مع من تكون مصلحتك فى التودّد اليهم ، ومداراتهم بالخصال الحميدة التى من أخصها التحامى عن استكناه أسرارهم

وجانب الألحاح فى الطلب والاستمناح ما استطعت ، لأن الألحاح مغر برفض السؤال ، وصارف لتيار العواطف عن السائل . فعاهد نفسك إذن على مجانبة هذه الخلة الدافعة بالمرء الى المهانة . وإذا خاطبت كبيرا أو صغيراً فصن كرامتك عن البذل فى حديثك معهما ، وانهض بأعباء الواجب نحوهما من احترامك الكبير وعطفك على الصغير . وبهذا وذاك يقوم الدليل على حسن أدبك وكرم محتدك ودماثة أخلاقك

واعلم أن فوز الكثيرين بالسعادة ، إنما كان بحرصهم على كرامتهم وتسامحهم فى معاملاتهم . وفى اجتماع هاتين الخصلتين ما يعزز جانب الباحث عن السعادة ويرضى عنه الناس أجمعين

واجعل القواعد التالية ديدنك وإمامك في المراسلات :

لا تضمن كتابك الى الشيخ الجليل ، ما لا يليق من التحية إلا بين النظراء ، وإلا اتهمك بقصد التهكم عليه وسوء الأدب . ولا تلحف فى سؤاله كيلا يقدرك بميزان لا يرجح فيه سوى كل نذل ساقط الهمة ذليل النفس

ومن الكياسة اجتناب الحركات المشعرة بارتفاع الكلفة ، فلا تضرب باليد على كتف محدثك ، ولا تمسك بذراعه ولا تجذب اليك أزرار ثيابه ، الخ الحركات الدالة على فساد التنشئة

ويجب إذا غشيت مجلس رئيس أو ذى مقام كبير ، أن تنتظر حتى يمدّ يده لمصافحتك ، فتمدّ اليه يدك . ويجوز بعد ذلك أن تبادىء بالتحية من دونه من الحاضرين ، مراعياً ترتيب التبعية هبوطا من الأعلى الى الأدنى

وجدير بالكيس الفطن ، اجتناب الخوض فى المناقشات المؤدية الى الشجار بين المتناقشين . وإذا كان مع كياسته ، حادّ الذكاء سريع الخاطر ، ففى قدرته تحويل دفة المناقشة الى غرض معين تنبعث منه الحقيقة ناصعة ساطعة ، فتنقطع بين المتناظرين أسباب المماراة وسوء التفاهم . وليعلم أن كرامة الغير أشبه شيء بأداة رفع الأثقال ، ميسور لصاحبها أن يعالج بها تحريك ما يريد . فإذا كان من الفطنة بحيث يستطيع التقرب من الكبراء من غير تسفل ، فقد ملك عنان أفئدتهم وجذبهم فى كل أموره

الى ناحيته

ومن أخصّ ما ينبغي اجتنابه فى هـذه الأحوال ، ذكر الجنسيات والأديان ، وغيرها من الموضوعات التى كانت ولا تزال من أسباب الافتراق بين الشعوب . لأن المرء إذا طلب من المال والسعادة صيدا ، لن يصيب منهما شيئاً ، إذا كاشف الغير بما فى قرارة نفسه من كراهة جنس أو دين أو عقيدة . فأن دولة الأعمال لا قومية فيها ولا مذهب ، وإنما هى ميدان من طمح إلى إحراز قصب السبق فيه ، كان خليقا به أن يوقن أنه إذا كان من أمة جديرة بالثناء ، فأن للأمم الأخرى تاريخاً دبجت أسطره بآيات المجد والفخر ، وأن لها مكانة وشأناً

نعم ، لقد امتازت أمم كثيرة بفضائل وسجايا لم تتوافر فى غيرها من الأمم المعاصرة أو المجاورة ، ولـكن بدهيّ أن هناك أمماً ، وإن منيت بعيوب ونقائص لا يمحوها سوى تعاقب الأجيال ، تأصلت فيها فضائل وصفات خفيت على شانئيها . فمن التحيز الباطل والجهل المطبق ، أن يحـكم هؤلاء على ما لم يحيطوا به علماً من شؤونها

على أنه لا يجوز الأخذ بحكم ما على دولة الأعمال ، إلا من رجالها العاملين فيها ، بقطع النظر عن أجناسهم . فأن من طبيعة الاجتماع اندماج الأجناس بعضها فى بعض بعامل المصالح المشتركة

والنزعات المتماثلة وتلاشيها فيها . وإذ كان أكثر ما تجيء الثروة من طريق التعامل مع البلاد الأجنبية ، فالقدح فيها ضرب من التهور لا مبرر له، بل خلق لأسباب الحيلولة بين الطالب والمطلب الذي يرنو اليه

ومن مقتضى التعامل أن تحتك بأناس لا تدنيهم خصالهم من منازل القلب . فأذا ساقتك الضرورة يوماً الى الاختلاط بهم، فعليك بالصبر والجلد ، وقابل وجوههم الباسرة بوجه يترقرق فيه ماء البشر وتلوح عليه نضرة الهشاشة . فكم من موسر لم يصل الى ما هو فيه من جاه وثروة ، إلا بلين العريكة وسلاسة القياد وسهولة الجانب ، وغيرها مما يجمع على محبته القلوب النافرة والعواطف المبعثرة

وبمثل هذه الخطة القويمة ، تتقي معاشرة السوء المفضية فى الغالب الى التنابذ بفاضح الالفاظ فالشجار العنيف . ولو نظرت الى خصمين كاشف أحدهما الآخر بالعداوة ، لرأيت الاختلاف بينهما ناجماً عن أمر تافه ، لو إستعملت الحكمة فى تلافيه من بادىء الامر ، لما اتسع معه إلى هذا الحد خرق العداوة والشحناء

ومن الناس فريق انطوت صدورهم على خير النيات وأحمدها، ولكنهم إذا اعتمدوا الجهر بها ، فعلوا وإنما على سبيل المفاجأة ، أي على وجه يتعذر معه الأقرار بحسن النية . ولو أنهم سئلوا فى

ذلك لحاجوك بقولهم : « قد يكون فيما توخيناه من طرق الأفصاح عن المراد شيء من الغلظة والجفاء ، إلا أنه لا ينفى حسن النية . ثم إننا قد رفعنا الكلفة ، فلم تبق حاجة بنا الى إلباس ألفاظنا لباس العطف والرقة ، مع ما نحن معتقدوه من نزاهة الغاية التى نرمى اليها . وثمة أمر آخر وهو أننا لم نألف زخرف القول بقصد التزلف ، وإنما نسبغ عليه حلة الجفاء والمفاجأة مع أصدقائنا الذين لا نرتاب فى صدق ودادهم ، ولا نحاشى التفريط فى حياتنا من أجلهم »

تلك هى حجتهم . ويمكن التلطف فى الردّ عليها بقولنا ، « إنه لخير لك أن تجد من قائله مصداق ما يدعيه من الاخلاص والوداد ، من أن يلقي بنفسه فى الهلاك يوماً ما من أجلك . وهو ما ليس بفاعله فى حياته أبداً

قال الكاتب (الفونس كارّ) : « أخذ أحدهم على سيدة شدة جفائها لصديق ممن لا تطاق طباعهم ، ولا تحتمل معاشرتهم ، فقال لها فى عتبه ، إن الرجل متفان فى إخلاص الودّ لها ، وأنه ليعرض نفسه للهلاك من أجلها ، فيما إذا نزل بها مكروه كغرق فى بحر أو نهر . فكان جوابها « أنها لن تقابل هذا الاخلاص بمثله ، لاستغنائها عنه بما تعرفه من السباحة التى تكفيها الغرق ، كما لا تروم مخالطة ذلك الثقيل المتطفل على مائدة الاخلاص »

ومن الفضائل اللازمة لاحراز الثروة والسعادة ، حسن التأنى فى كل الأمور . وهـذه الفضيلة من أوثق الفضائل ارتباطا بالكياسة ، لما فيها من الوازع عن العجلة التى لا تعقب غير الندامة ، ولا تدل إلا على العجز

وطبيعة الشباب التعجل فى الحكم ، وعدم الأخذ بالروية . ولقد يكون حكمهم ، على ما يداخله من الخطأ ، بعيداً عن قصد الأضرار بالغير . ولكن لا يضرّ الشبان ، إذا راموا الحكم على شيء ، أن يسبقوا الى الاستشارة قبل البتّ فيه . وهم أحوج ما يكون الى ذلك ، إذا كان الحكم متعلقاً بأحد المرافق أو بمصلحة عامة . فقد قيل : « شاور من جرب الأمور فأنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وأنت تأخذه بالمجان »

ومما ينبغى أن نستنفد فيه الوسع ، الاحتفال بكرامة الغير كما نحتفل بكرامتنا . لأنه إذا بدرت منا كلمة أو حركة تفيد قلة المبالاة منا بغيرنا ، فيما ينقل عنه منافياً للكرامة والشرف ، فلا رجاء لنا فى أن يكترث بنا ، يوم يستطيع أن يدفع عنا فى غيابنا ما لم ندفعه عنه فى غيابه . وتلك بهذه ، والبادى أظلم .

مر أحدهم برجلين فحياهما ، فردّ أحدهما التحية بأحسن منها . فلما شهد صاحبه منه هـذا الأدب ، قال له معاتبا : كيف ترد على فلان تحيته ؟ فسأل : ولم لا تريد أن أردها ؟ أجاب :

لأنني أمسكت عن إكرامه بالتحية منذ الحادثة المعلومة. فسأل: وما هي الحادثة، فأنها إن تكن معلومة منك مجهولة مني. فأجاب: حادثته.. أو تجهل حادثته.. أما بلغك أنه غش في المقامرة؟.. فقال: كل ما أعرفه عنه أنه لما سقط في مهواة المقامرة بخدعة أحد المقامرين، خسر كل ماله ولم يربح المسكين فتيلا. فأجاب: نعم. إن الحقيقة كما تقول. ولكنني معتقد بوقوع حادثة له جعلتني أمسك عن ردّ السلام عليه..

يستشف من هذه الحكاية، أن الآراء الفجة والأحكام السابقة لأوانها، كثيرا ما يكون أساسها الوهم والظنة. وهذه شنشنة في الانسان تجعله يرى في المسروق المسطوّ عليه، أنه السارق، إذا اشتهر ذلك عنه خطأ في الرواية، فيتعذر على من يصل اليهم هذا الخبر محو أثره من نفوسهم، مهما طالت الأيام وبذا يبدو الكريم في عين الجمهور لئيما، ويلبس اللئيم لبوس الكرماء

أما إذا تجلت الحقيقة في قالبها الصحيح، وبان لصاحب الرأى السقيم أو الحكم المبني على الوهم خطأه فيما ذهب اليه، عاد باللائمة على النمام وصغر قدره وسفه رأيه

فمن العدل رعاية التأني والتسامح في الحكم على الناس. فأذا دعاك داع الى إبداء رأى أو النطق بحكم علي شخص أو

شىء ، فاعتصم بحبل التحفظ والاحتياط ، واجعل إمامك فى طريقك، قول (لابروبير) : « إذا بلوت من لا تنبس له شفة إلا بالقدح فى الناس والنهش فى الأعراض ، لكراهية متأصلة فى النفس ، فثق بانه ممن أجمع الملأ على بغضه وكراهيته »

والذين تجتمع القلوب على كراهيتهم ، قلما يستطيعون مطاردة الثروة واقتناص طائرها ، مهما بذلوا فى هذا السبيل من الجهد . لأن الثروة إذا افتر ثغرها فى وجه الشهم المقدام، فأنها تكشر عن نابها للعاجز عن مطاردتها ، بالأقدام الذى تسوسه الكياسة ، والشجاعة التى يرودها اللين والرفق والتمهل



١٢

حب العمل

لا تتوافر السعادة للمرء، إلا إذا اتجه توّاً نحو الغاية التى اتخذها المثل الأعلى لنفسه. فاذا كان سعيد الطالع، فالجهد الذى يبذله لادراكها يختلف بحسب استعداده الفطري للنجاح ومؤاتاة مواهبه الكسبية له. أما إذا استنام الى الأقدار، وأخلد الى التهاون والدعة، وانتظر أن تهطل السماء عليه وابل الثروة ثم وافته الأيام بما يتجاوز الأمل كما يحدث كثيراً، فلا بد أن يجزى على هـذا التواكل بالحرمان من لذة التنافس الذى يتبارى فى ميدانه أصحاب الهمم وأساطين الأعمال

والذين يتخصصون لعمل ما، مع المثابرة عليه وصرف الهمة اليه، لا يخشون الزيغ عن المحجة المؤدية الى قصدهم، لأنهم يسيرون فيها بقدم ثابتة ونفس مطمئنة. ومتى وصلوا اليه، شعروا بلذة السعادة وأشركوا معهم فيها من يلتف بهم من العاملين والمساعدين

ولقد مرزنا ، فيما تقدم ، بالفضائل التى يترتب عليها إدراك ما نتطلع له من النجاح ، فعلمنا أن النجاح طائر إذا لم يرضه صاحبه على الأنس به ، يفلت من يده تاركا له الحسرة والندم على تفريطه .

على أن تلك الفضائل ، إذا لم تقترن بحب العمل والثبات عليه ، تضيع الفائدة المرجوة منها . قال (لاكوردير) : « الرجل الذى غل يده عن العمل ، ينحدر من الغفلة الى الكسل ، ومن الكسل الى الملل ، ومن الملل الى هموم القلب . وماهموم القلب إلا الحالة العصبية التى سماها المتأخرون بالنورستانيا ، وهى ذاك المرض المستعصى الذى يحمل صاحبه على طلب الخلاص منه بالانتحار »

والانتحار أو ماجرى مجراه ، خاتمة من يجتاز طريق حياته على غير هدى ، وبلا أمل يحدو به الى مثل أعلى . وحياة المرء ، مقطوع الرجاء من غرض يرمى اليه ، باعثة على اليأس قاتلة لكل همة تستفز الى مطمع ، معترضة دون إدراك الغايات . وكثيراً ما يحس اليائس المخذول ، إذا نزل به نازل ، أن نزوله قد خفف من وطأة اليأس عن نفسه ، وذهب ببعض ما يكابده من السأم . ذلك لأن عذابه ناشىء من البطالة والعطل ، وفى اشتغاله بمهنته ما يفرج ضيقته ، ويسد فراغ وقته

قال حكيم ألماني : « العمل علقم إذا تعاطاه العامل لم يشعر بمرارته » . وقال بايو : « ذكروا أن السرور منشط للنفس بما يحدثه من التوازن بين أعضاء الجسم ، ولكنه إذا اقترن بالعمل المناسب ، تنشطت النفس للتمتع بحظها من الملاذّ . وهذه هي السعادة القصوى والهناء بحذافيره » .

ولا يفوتنا التنبيه هنا على أن من نسميهم « سعداء الطالع » ما هم إلا أولئك الذين يطرأ الخلل على نظام معيشتهم ويتكدر صفو حياتهم لاعتمادهم ، فيما هم فيه من النعيم ، على المال التليد الذي لم يبذلوا في تحصيله أقل عناء . فهم على نقيض من يعالجون مصاعب الحياة ، ويبذلون في التغلب عليها كل الجهود . فاذا دهمتهم الهموم اعتمدوا في تبديد غيومها على ما أهبوا أنفسهم به من عدد الكفاح وذرائع الوصول الى ما يصبون اليه من الغايات

والعمل في ذاته باعث على الغبطة . وأقل ما فيه من المزايا ، أن العامل يشرح صدره ويرضي ضميره بأن يعمل لادراك غاية معينة . وما من عامل جعل العمل مصدر غبطته ، إلا وقد أسعفه التوفيق بما لا منزع بعده لآمل .

والمراد بالعمل هنا ، ما ينتجه حسن الاستنباط وسداد الرأي ، ويرمي إلى غرض معين ، ولا تبذل الجهود في سبيله إلا للاستفادة منه والتمتع بثماره . والذي يمضي في تيار العمل قبل

أن يتبين الغرض المقصود منه ، فجهوده فيه ذاهبة أدراج الرياح . وما أشبهه حينئذ بالغارس الذى يودع الأرض القاحلة الغراس الصالحة ، ثم يتولاها بعنايته ويسوق اليها ماتحتاجه من مواد النماء ، رجاء أن تثمر من كل فاكهة زوجين ، فيقف إزاء فشله باهتاً حائراً

حب العمل من الأساطين التى قام عليها بناء الثروة . وقد فطر الانسان على أن لايتقن عمله ، إلا إذا أحبه لذاته وصبا لمباشرته . فحسن القيام بالأعمال معلق على حبها أولا ثم على اتمامها مستجمعة وجوه المتانة والاتقان

ولا معنى مع بداهة هذه الحقيقة ، لأن يدهش الكسالى والغافلون والمتخلفون عن التماس السعادة ، إذا لم يفوزوا منها بنصيب . فأن من خلائق الكسول ، إذا دعى إلى العمل ، أن يزاوله متكلفا متثاقلا ، فأن أتمه فلا يكون ذلك إلا رغم أنفه ، لما هنالك من التنافر بين طبيعة المزاولة القسرية والمثابرة التى لا إتقان بدونها

وإذا هم ، لأسباب طرآنية ، بالذود عن مصلحة له ، فلا تلبث أن تراه متحيراً في التماس الدليل يؤيد به مذهبه فلا يجده ، بخلافه لو أطرح الكسل والغفلة ، فأن الأدلة المؤيدة

لرأيه تفيض عليها فيضا فيتصرف فيها على ما يعزز رأيه وينصر قضيته

وإذا كان مناظر الكسول محباً للعمل ومتقنا فيه ومبغضاً للكسل والكسالى ، فالحكم الجازم بغلبته على نظيره ، ولو لم يكن ذا حق ، فيما شجر من الخلاف بينهما

وكثيراً ما ينقلب حب العمل إلى شغف شديد بأدائه على مقتضى الأجادة والأحسان فيه ، وهشاشة للأقدام على جليل الأعمال . فلو استمسك العامل بالفضائل التى سبق الكلام عليها ، لجذب السعادة اليه من ناصيتها ، وأمسك بعنان الثروة ، وأشير اليه بالبنان بين الأقران

لم يكن الموسرون الذين اقتعدوا غارب الثروة ، ممن منحوا للعمل أكتافهم ، بعد إذ قضوا بواسطته لبانتهم منها . كلا ! فأنهم ما برحوا يزاولون العمل كما فى أيام دأبهم عليه ، لملاحقة طريدة الثروة . وما راموا بالاستمرار فيه ، بعد أن جنوا من ثماره الشهية ما غصت به خزائنهم ، إلا تدعيم ما شادوه لأنفسهم من صروح المجد والغنى ، لتبقى فى صون من العطب والفساد على مدى الأحقاب ، ولكي يتاح لهم أن يرددوا قول من قال :

تلك آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا إلى الآثار

وحب العمل على المثال المتقدم ، فرض عين على من يروم

تحصيل السعادة وأصابة طائر الثروة . فأنك ترى كبار الموسرين الذين أيدت المشاهدة هذه الحقيقة فيهم ، لا يرون بداً من مطالبة أبنائهم بالعمل ، وإن لاح أول وهلة أنهم فى غنى عن التوسل به ، لورود موارد السعادة . وفى الواقع كيف يفتقرون الى مزاولة الأعمال لكسب المال ، وهم أبناء بجدة الثروة المولودون فى بحبوحتها ، محفوفين بمظاهر الترف والنعيم ؛ غير أن آباءهم الذين عانوا صنوف المشاق والأهوال فى تحصيل السعادة رأوا أن فى إخلاد أبنائهم الى البطالة ، وفى تفيؤهم ظلال الدعة والنعيم ما يحجب عنهم السرور ، ويحرمهم لذة العمل ، ويبدد المال الذى ركبوا متن الأخطار فى تحصيله ، ويهدم كيان مستقبل أعقابهم ففرضوا العمل عليهم وطالبوهم به وراقبوهم فيه

ولقد ذكرت إحدى الصحف الأمريكية نادرة في هذا الموضوع . قالت : « قضى أحد كلاب الصيد الشطر الأوفى من عمره في صيد الغزلان والأيائل . فلما أحس بدنو أجله جمع اليه أجراءه وقال لهم : — أبنائى الأعزاء ! لقد عانيت فى صيد الغزلان والأيائل التى ترونها في هذه الحظيرة جهداً كبيراً ، وأنفقت فى تدبير الغذاء الصالح لها صفوة مالى وعمرى ، حتى صارت إلى ما ترونه من اللحم والشحم . وما كلفت نفسى هذا العناء إلا لتعيشوا عيشة النعيم والهناء ، فعليكم إذن بالدخول فى حظيرتها

لتأكلوا ما طاب لكم من أطايبها »

وأردفت الصحيفة هذه القصة بقولها : « إن الآباء يمرون بهذا المثل من الكرام بلغو الكلام، ولا يعيرونه لفتة من عنايتهم . وهو خطأ لا يختلف فى خطورة ضرره اثنان »

ولو أتيح للحيوان أن يدرك كلام الانسان، لقال لذلك الكلب إنه أراد، بما حث أجراءه عليه من الضراوة بغزلان الحظيرة وأياثلها، أن يلقى بهم فى الهلاك . لأن الامتلاء بالشحم واللحم يضطرهم الى ملازمة الدعة والراحة، فيدركهم منها سبعة عشر داء، إذا لم تمت بأحدها، فلا أقل من أن تصير كلاباً عقورة مسعورة، لا يفلت من أنيابها السامة أحد . وتكون عاقبتها الأعدام كما تعدم الكلاب الكلبة

وكان خليقا بذلك الأب، أن يعين لها مواعيد للطعام تسد فيها نهمتها، بعد مزاولة العمل بالجد والنشاط

فحب العمل لا مندوحة عنه، كما ترى، لطلاب الثروة وناشدى الجاه والعاملين لمستقبل أعقابهم . ولكن لا يفوز به إلا صاحب الهمة والغيرة والنشاط

وإذا صار الشغف بالعمل ملكة فى النفس، واقترن بالنشاط والدأب، أفضى بصاحبه الى المطامع الشريفة، وقاده الى الدرجات

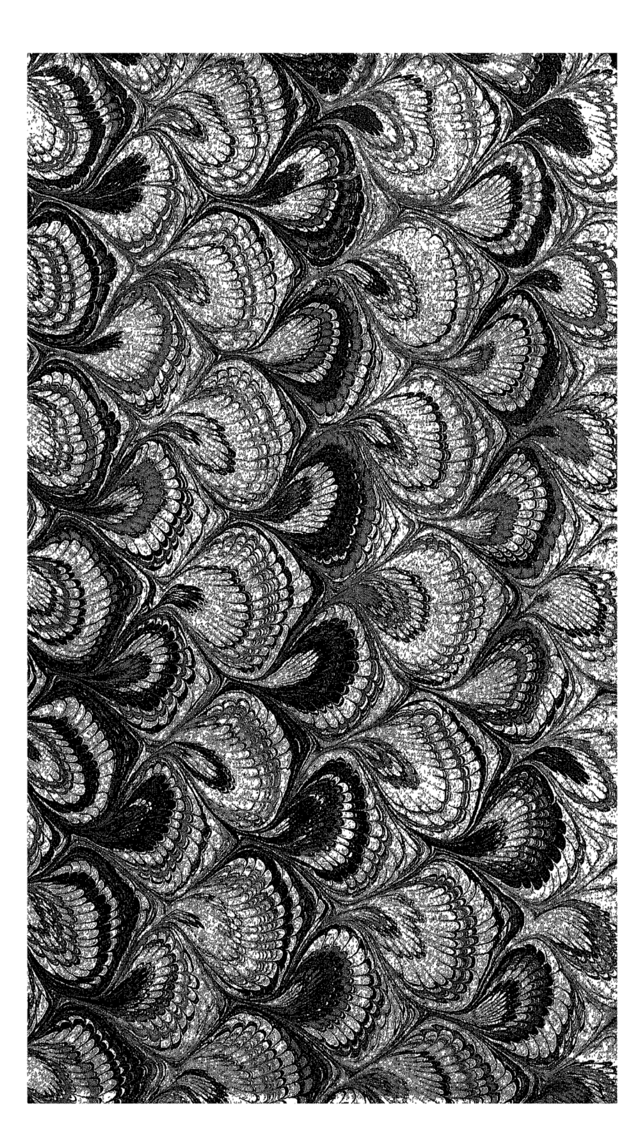
العلية ، ومهد له اقتناص طائر السعد بما يكون قد بذله من الدأب والهمة ، وعمل به من الخصال التى أفضنا فى الـكلام عليها ، ذلك الطائر الذى لا يرفرف إلا على رأس الجدير بصيده ، فيسمع تغريده ويعجب بزاهي ألوانه التي تبعث فى النفوس البهجة وفى القلب المثابرة على العمل مع النشاط فيه



فهرست الكتاب

فهرست الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	الخطأ	صوابه	صحيفة	سطر	الخطأ	صوابه
١	١٩	أطمئنان	واطمئنان	٢٨	١٩	زيث	زيت
٩	١٣	الأحاديث	ازاحاديث	٤٦	٩	المحتلفة	المختلفة
١٥	١٦	اسلاك	سالك	٥٧	٩	يذمهم	يؤنهم
١٥	١٧	ألحياة	الحياه	٥٧	١٩	منغلبا	متغلبا
١٠	١٨	لقى	ألقى	٧٠	١١	بتوريد	توريد
٢٥	٧	يدون	بدون	٧٢	٢	الجأس	الجأش
٢٨	٤	قوس	قوسين	٨٠	٦	لذاكرة	الذاكرة
٢٩	١٩	لخبر	لخير	١٠٧	١٥	بالرضى	بالرضا




Bibliotheca Alexandrina
04007943